ليالى ودموع

يوسف السباعى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

ليلة بلا نوم

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة وأنا في طريقي الى البيت ، وكنت مرهقا مكدودا ، ضيق الصدر بمتاعب اليوم ، ولم أجد هناك مايدفعني الى التعجيل بالعودة الى الدار ، وداخلني احساس بالحاجة الى الانطلاق بالعربة في الطرق الخالية بأطراف هليوبوليس .

ولم أعرج على البيت وتركت العربة تنطلق بي في شارع السباق ، وأحسست من فراغ الطريق وسكونه وهبة الهواء الرطب التي لفحت وجهي بشيء من الانتعاش ، فتمهلت وأخذت أدندن بصوت خافت .

ولم يبدو على طول الطريق أثر لعابر ، وقامت الدور على يميني ساكنة مظلمة الا من بضعة أضواء تناثرت من نوافذها ، وعلى اليسار امتد سور السباق المنخفض وقد ترامى وراءه الفراغ الفسيح يلفه وشاح من الوحشة والظلمة والصمت المطبق .

وعلى أضواء الطريق الباهتة .. ووسط سكونه المخيم بدا لى شبح امرأة تستحث الخطا . وترامى الى أذنى وقع خطواتها جادة متعجلة .. كأنها خطوات جندى فى طوافه .

وبغريزة الرجل .. ازددت تمهلا .. وأخذت أرقب شبحها المقبل .. الذى لا أكاد أميز منه سوى حدوده الخارجية وطريقة سيره .

وأنا أميز المرأة بطريقة سيرها وهيكلها .. وأكاد أحس بمدى جمالها أو قبحها من هذين المنظرين . ولا أظنهما خدعانى الا فى القليل النادر .. ولقد أحسست من خطوات المرأة المقبلة وتخطيط شكلها فى الضوء الباهت .. أنها شيء لطيف يستحق الرؤية .. أو أكثر من الرؤية ان أمكن .

وازداد تمهلى وهى تزداد اقترابا .. وأيقظت الوحدة والظلمة ونسمات المرأة المقبلة مشاعرى وأرهفت حواسى ، فانحرفت بالعربة الى الجانب الأقرب اليها – وهو جانب السباق – حتى أتمكن من رؤية وجهها .

وعندما دنت من العربة .. أحسست أن ضوء الطريق الخافت لن يهيىء لى فحصها جيدا .. وأضاءت ضوء العربة الكبير .. فسطع عليها فجأة وبدا عليها الضيق والانزعاج وبدت لى فى خطواتها العجلى وسيرها المندفع كطائرة أمسك بها ضوء كشاف وهى تحاول الفرار منه .

وخرجت عن نطاق الضوء .. واستمرت فى سيرها العجل .. وخطواتها الجادة ، غير متلفتة حولها .. أو ملقية الىّ أدنى اهتمام .

ولم أحاول التوقف .. فقد كانت الفترة التي وضعت خلالها فى نطاق الضوء . كافية لكشفها .. وكافية بالتالى لأن أواصل السير بعد أن أحسست أنه ليس بها مايجذبنى اليها .. أو يغرينى بها .. أو يهيىء لى فيها أى نوع من أنواع المغامرة . وبعد أن أيقنت أن المشية والهيئة قد خدعانى – الى حد ما – هذه المرة .

كان وجهها نحيلا .. شاحبا .. وقد بدت حول عينيها من تجاعيد الإرهاق والذبول .. ما دفع فى نفسى الظن بأن عقدها الرابع يوشك أن ينفلت .

ودفعنى الكسل وهزال الصيد الى معاودة الانطلاق بعربتى مفضلا الليل ونسماته الرطبة والاستمتاع بالسرحان والدندنة .

وواصلت السير فى الطريق مخلفا ميدان السباق ، والعمارات الجديدة المشرفة على ساحته ، عابرا خط المترو الجديد حتى بلغت نهايته وأدرت العربة حول المحطة الأخيرة عائدا فى طريقى من حيث أتيت .

ومرة أخرى .. بدا لى الشبح فى خطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة .. وسط الفراغ العريض والسكون الشامل .

وأدهشنى استمرار المرأة فى السير بلا هدف واضح . فقد كنت أتوقع أن تكون قد اختفت فى احدى الدور التى لاشك تقصد اليها .

ولم تكن فى سيرها مستعرضة ، ولاكان الطريق الخالى بميدان صيد .. حتى أظنها امرأة ليل تبغى صيدا .. ولاكان الوقت الذى تسير فيه أو المظهر الذى تسير به يدفعان الى الظن بأنها تمارس نوعا من الرياضة .

وعادت غريزة الرجل وحب الاستطلاع والرغبة فى المغامرة توقظ حسى وترهف أعصابى .. وكنت قد أشرفت عليها .. وأوشكت أن أجاوزها .. دون أن أستقر على أمر أو اتجاه .

وبلا خطة موضوعة .. أو تفكير مرتب .. أو هدف واضح .. أوقفت العربة .. وفتحت الباب .. وفى لهجة جادة مقتضبة قلت لها .

— تفضلى .

ولم أشك فى أنى قد فاجأت المرأة بدعوتى .. بل بمجرد وجودى .. وقفت تنظر الىّ على ضوء العربة الداخلى الذى أضاءه فتح الباب .. وقد بدت مشدوهة مأخوذة .. ومرت لحظة صمت .. حاولت خلالها أن أضع خطتى للحظات القادمة وردودى للاحتمالات المنتظرة .. ووسائلى لمقاومة التمنع المحتمل .

ولكن المرأة فاجأتنى مفاجأة أشد ، وبلا كلمة تمنع .. أو سؤال استفسار .. وفى ثانية واحدة .. كانت تستقر على المقعد بجوارى دون أن يختلج فى وجهها عصب أو تفتح شفة .

وسمعت صفقة الباب .. وساد السكون .. وعم الصمت الا من صوت أنفاسها تتلاحق لاهثة كأنها جواد فى سباق .

وسرت بالعربة .. ومضت برهة .. كان كلانا يشرد ببصره من زجاج النافذة الى الظلمات المترامية .. وكان علىّ أن أفيق من المفاجأة وأن أقول شيئا .. ألم أكن الصائد صاحب الدعوة ؟

وكانت أقرب الألفاظ الى شفتى .. كلمات التحية .. فقلتها .. أكتسب بها الوقت .. وأتمالك أعصابى .. وأستعيد طبيعتى المغازلة المرحة ، فقلت .

وأخيرا قالت :

- مساء الخير .

ولم تكن كلمات الغزل قد لانت على شفتى بعد . اذ لم أجد بها ما يدفعني الى الغزل المخلص الطبيعى .. ووجدت رغبتى فى الاستطلاع تسبق قدرتى على الغزل المجامل المتكلف فقلت متسائلا :

- الى أين ؟

وببساطة أجابت .

- أحضر العشاء .

(عشاء !!) وكادت تنفلت منى صيحة دهشة .. أسرعت فى كبتها .. ولم يكن فى مظهرها المحترم ولا فى الساعة التى تسير فيها .. مايبرر خروج سيدة مثلها لإحضار عشاء ، وسألتها فى لهجة غير مصدقة :

- الآن ؟ تحضرين العشاء ؟

- أجل .. لقد عدت فلم أجد فى البيت طعاما .

- وأين البيت ؟

- فى احدى العمارات المطلة على السباق .

- ولكن ألم تكونى تعرفين أنه لايوجد فى البيت طعام ؟

- انى أنسى هذه الأشياء .. لاأذكر شيئا عن البيت الا عند عودتى اليه .

مخلوقة عجيبة .. ورد أعجب !

وعدت أتساءل .. دون أن أتنبه الى أن المرأة الغريبة قد حوّلتنى من صائد ليل مغازل .. الى وكيل نيابة محقق .

قلت لها :

– ولماذا لم ترسلى أحدا من البيت يحضر لك عشاء ؟

– لأنه لايوجد معى أحد .

وطرقنى ردّها طرقة مثيرة .. لقد بات أمرها سهلا ، من حيث المكان ، فهى تقطن وحيدة .. ويمكننى أن أعود معها الى بيتها .

وكان علىّ أن أتولى احضار العشاء .. وبحثت فى ذهنى عن محل ابتاع منه .. دون أن أسلك طريقا مطروقا يعرضنى واياها للأبصار .. وقبل أن أستقر على رأى سمعتها تقول .

– من فضلك اتجه يسارا .

ع الجانبى الذى يلف يسارا حتى ينتهى الى
ء بالمارة والحوانيت .

وأجبت مترددا :

– لماذا ؟

– لأحضر العشاء .

– سأحضره لك أنا من محل أعرفه .

– لا داعى لأن تتعب نفسك .. يوجد بقال على الناصية لى عنده حساب .

to: www.al-mostafa.com

وحاولت أن أجادل ولكنها أصرّت .. فلم أجد بداً من الذهاب الى حيث تريد .

ووقفت بها أمام البقال وهبطت من العربة لتعود بعد لحظات وقد حملت معها بضع لفائف صغيرة .

ومرة ثانية استقرت بجوارى وقلت متسائلا :

– أتعودين الى البيت ؟

وترددت لحظة قبل أن تجيب متسائلة :

– ألا تحب أن تلف بالعربة برهة ؟

– أجل .. أجل .. كما تشائين .

وأدرت العربة مرة أخرى الى شارع السباق وانطلقت أجول بها متتبعا الطرق الخالية فى أطراف الضاحية .

وبدا عليها الشرود وهى تستقر بجوارى فى هدوء وصمت ولم تعد أنفاسها تتلاحق لاهثة ، بل بدت عليها السكينة ، والطمأنينة والاستقرار .

وكان علىّ أن أوالى بقية تحقيقاتى .. لأستفسر منها عما غمض علىّ .

قلت أستدرجها من شرودها وأقطع عليها صمتها :

– أتعيشين وحدك .

– أجل .

– ألست متزوجة ؟

– لا .

– ألم تتزوجى ؟

– تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. وقد أتزوج وأطلق .. وأن الزواج فى حياتى من الحوادث العابرة وليس من الأحداث المقيمة .

– أليس لك أهل ؟

– لى .. ولكنى أفضل أن أقطن وحدى .. انى أعمل فى الفن .. أقوم ببعض الأدوار الثانوية فى السينما والمسرح وأحيانا أعود فى الليل متأخرة .. وأحيانا سكرى .. ولا أحب أن أقلق راحة أهلى أو أسىء اليهم .. ولذلك أفضل السكن وحدى .

ولم يكن هناك شك بعد هذا .. أن المرأة صيد سهل ميسور .. زواج وطلاق .. وفن .. وسكن وحدها ، وسهر ، وسكر .. كل هذا .. ترك المسألة كما يقولون (على بلاطة) .

ولكن المشكلة لم تكن مشكلة السهولة واليسر .. بل كانت مشكلة القابلية والإثارة .

ان المرأة لم تثرنى من اللحظة الأولى .. بوجهها الشاحب المرهق ، وهزالها البادى ، ولقد ظننت أن التلاصق والحديث قد يمنحنى شيئا من الإثارة ، ولكن مشاعرى لم تثر بأكثر من الشفقة والعطف .

ومع ذلك .. وبدافع من العناد .. والإصرار على اتمام المغامرة وجدتنى أسائلها :

– ألا نعود الى البيت ؟

وبلهجة الاستسلام والرضوخ أجابت :

– أمرك .

ووقفت أمام باب البيت ، ووجدتها تجمع اللفائف لحملها فقلت :

– عنك .. دعيني أحملها لك .

– لاداعي للتعب .. سأحملها أنا .

– ألديك ما يمنع من الصعود معك ؟

وصمتت .. ومضت بها برهة وجوم وتفكير وما لبثت أن تساءلت :

– أتصر على الصعود ؟

– اذا لم يكن لديك مانع .

– أبدا .. لامانع لديّ .. فقط .. أخشى لغط البواب والسكان وأكره أن يقولوا أني أحضر رجالا فى البيت ، فانتظر حتى أتأكد أن البواب قد نام وأن الطريق خال .. وسألوّح لك بضوء ثقاب من وراء النافذة الكائنة فى أعلى الدار .

– واذا لم أر الضوء ؟

– يكون من الخير أن تنصرف .

ودلفت الى البيت وجلست أرقب النافذة الصغيرة التى أشارت لى اليها .

أى، أحمق أنا ! ماذا يدفعنى الى الزج بنفسى فى مثل هذه المغامرة ؟ أدخل بيتا لا أعرفه فى منتصف الليل .. مع امرأة لا أكاد أعرف عنها الا ما حدثتنى به عن نفسها مما قد يكون باطلا مكذوبا .. وقد تكون ذات زوج .. وقد يكون بيتها كمينا لاصطياد المأفوفين السذج من أمثالى .. للاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم !

ولماذا أفعل كل هذا ؟ من أجل امرأة لا أريدها .. ولا أشعر لها بأية قابلية ، ولم تثر فىّ جارحة .. أو تهيج لى حسا .

يجب علىّ أن أنصرف .. وكفانى هذا القدر من المغامرة . خير لى أن أعود الى البيت لألوذ بأطراف الأمن والراحة وأجنب نفسى شر الكوارث والفضائح .

ومع ذلك لم أتحرك فكثيرا ما ينطلق تفكيرى فى ناحية ويتبلد تصرفى فى ناحية أخرى .. فأظل مقيدا فى موضعى لا سلطان لتفكيرى على تصرفاتى .

وتعلق بصرى بالنافذة العالية التى بدت وراءها رقعة السماء الداكنة بنجومها المتناثرة وقطعة ضئيلة من القمر تعدو على صفحتها نتف من السحب تحجبها تارة وتبرزها أخرى .

وفجأة لاح لى الضوء الباهت يتحرك وراء النافذة ، وأحسست بأعصابى تتوتر .. وبمشاعرى ترهف ، وتملكنى وهم شاعرى ممتع مثير .

نافذة فى السماء .. وسحب متحركة ، وقمر شاحب ، ووقفة مسترقة فى عرض الطريق المظلم الخالى .

وأخيرا ضوء باهت يتحرك المظلم الخالى .

لا .. لا .. انها مغامرة ممتعة .. أيا كانت المرأة التى سأغامر من أجلها . .

وببلاهة المغامرين .. طرحت مخاوفى فى عرض الطريق واندفعت اصعد السلم .

وبدأت ألهث عندما وصلت الى الدور الرابع .. فتوقفت وأنا لاأجد أمامى سوى سلم ضيق يؤدى الى السطح ولم أكن واثقا بالضبط من عدد أدوار البيت .. كل ما كنت أعرفه أنها تقطن فى الدور الأخير وأن نافذتها مطلة على الشارع .

ووقفت برهة حائرا وأنا أجد الأبواب أمامى موصدة دون أن أعرف بابها .. ولم يكن من المعقول أن أغامر بطرق أحدها خشية أن أخطىء بغيتى وأفضح نفسى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وأنقذنى من حيرتى همسة استدعاء آتية من السطح ورفعت بصرى فوجدت وجهها يطل من أعلى السلم الصغير .

وصعدت السلم فأفضى بى الى حجرة صغيرة فوق السطح .

وأحسست بشىء من الخذلان والخيبة وأنا أرقب الحجرة المتواضعة بمظاهر الفقر والرثاثة البادية منها ، وحاولت جهدى أن أخفى مظاهر خيبتى وأن أسترها بمظاهر المرح المفتعل .

وسمعتها تتمتم فى استحياء وهى تقدم لى مقعدا من الخيزران :

– أنا متأسفة .. الحجرة لاتليق بك .. ولكنك أنت الذى أصررت على الصعود .

وزاد اعتذارها الخجل من احساسى بالشفقة عليها .. وصممت على ألا أخذلها وأن أجعل من مرحى المتكلف مرحا أصيلا .. فقلت ضاحكا :

- انها مكان شاعرى لطيف .

ورمقتنى فاحصة ، ثم أطلقت من أنفها ضحكة قصيرة ساخرة وأجابت :

- انك أنت المجامل اللطيف .

وخيمت على وجهها سحابة معتمة كبتت دوافع المرح فى نفسى وأوقفت كلمات التهريج التى أوشكت على الاندفاع من شفتى .

ومدت يدها الى الدولاب الوحيد الموجود فى الغرفة فأخرجت زجاجة ويسكى قد امتلأ نصفها ووضعتها على المنضدة الخشبية الصغيرة بجوار اللفائف التى أحضرتها من البقال وقالت متضاحكة :

لعلك لاتمانع فى مقاسمتى الزجاجة .. انى فى حاجة اليها كلها ، ولكنى على أتم استعداد للتنازل لك عن نصفها .

- انى لا أشرب .

- غير معقول !

- ولماذا ؟

- مغامر مثلك يطارد النساء فى منتصف الليل .. ويتبعهن الى خدورهن .. ثم لايشرب ؟ خذ لك كأسا .

- حقيقة لا أشرب .

– اذا أصنع لك فنجانا من الشاى ؟

– لا لزوم له .

– أو فنجانا من القهوة ؟

– لا داعى للتعب .

– اذاً تشاركنى عشائى ؟

وسارت الى باب صغير يفضى الى دورة مياه ، وما لبثت أن عادت ومعها بضعة أطباق أخذت تفرغ فيها اللفافات : جبنة وزيتون ، ومرتدلا ، وطرشى .

ودرت ببصرى فى أنحاء الحجرة .. فوجدت خليطا عجيبا من البوهيمية والرثاثة والفوضى .

فراش ما زالت أغطيته مشوشة من نوم الليلة السابقة ، ووسائد بدت عليها آثار الرأس بقذارتها الدهنية جلية واضحة ، وفردة شبشب مقطوعة ، وأعقاب سجائر ، وزجاجات ويسكى وبيرة ونبيذ فارغة .. ومشجب تراكمت عليه مختلف أنواع الثياب النسائية : روب حريرى ، وكورسيه ، وفستان أزرق ، وعلى الأرض بجوار الفراش كوم آخر من الملابس وأعقاب السجائر والصحف والمجلات .

وبجوار الفراش والمشجب استند الدولاب على الحائط بمرآته المشروخة وضلفه التى لاتغلق وأحشائه المطلة بخليط عجيب من الثياب والأوراق والزجاجات ، وتتوسط الحجرة سجادة ناحلة استقرت عليها المنضدة الخشبية وأحاطت بها بضعة مقاعد من الخيزران ومقعد كبير متهالك منهار ، ووسط هذه الفوضى والرثاثة بدا الشىء الوحيد المعتنى

به في الحجرة والذى لم أجد لوجوده مبررا ولا معنى وهو رف للكتب وضعت عليه عدة كتب مرصوصة بعناية .

وسألتها مستوضحا :

– يبدو لى أنك تقرئين كثيرا ؟

– ان القراءة هى الشىء الوحيد الذى أدمن عليه دون أن ينالنى منه سوء .

وكانت قد انتهت من رص الصحاف ورأيتها تمد يدها الى المشجب فتتناول القميص والروب وتتجه الى الباب الصغير الذى أحضرت منه الأطباق قائلة :

– دقيقة واحدة .. أبدل ملابسى .. انى أحب أن أجلس معك على راحتى .. ألديك مانع ؟

– أبدا .. افعلى كل ما يحلو لك ، ولاتقيمى لوجودى وزنا .

– معك حق .. ما دمت قد غامرت باحضارك هنا .. فليس لى أن أخشى بعد ذلك شيئا .. ليس لدىّ أسوأ مما ترى .

ولم يكن هناك فى الواقع أسوأ مما أرى ، فلا أظن المرأة قد أدخلت فى حسابها قط .. أن رجلا سيزورها فى حجرتها .. فالمرأة التى تتصيد رجلا لتقدم له جسدها لايمكن أن تعرض عليه كل هذه الخفايا المنفرة التى تحرص فى العادة على اخفائها .

ولقد قلت أنى من بداية الأمر لم أحس للمرأة بأى قابلية وأنى كنت أرجو أن تثيرنى المغامرة نفسها ، ولكن جو الحجرة بكل مافيه

من فوضى وقذارة ورثاثة قد قضى على كل ما يحتمل أن تثيره فى نفسى خلوتى بامرأة ، واندماجى فى جو المغامرة .

واختفت المرأة لتبدل ثيابها وبدأت أجد أن مهمتى التى كانت فى مثل هذه المواقف – تنحصر فى استدراج المرأة – قد باتت تنحصر فى كيفية التخلص منها دون أن أجرح مشاعرها أو أولم نفسها .

وعادت الىّ قائلة فى مرح :

أما زلت تصر على ألا تشاركنى الزجاجة ؟ سأضطر اذاً أن أشربها وحدى .. واذا سكرت فأنت المسؤل .. تفضل .. كل على ما قسم .

ولم تكن لى قابلية للطعام .. ولكنى خشيت أن أولهما برفض مشاركتها اياه فاقتربت بمقعدى من المائدة وتشاغلت بالأكل .

وبدأت الخمر تتدفق من الزجاجة الى الكأس .. ومن الكأس الى حلقها .. ورفع الشراب ستار الكلفة والاستحياء الذى كان يسدل عليها وفك عقدة لسانها ، فاندفعت تثرثر فى خفة مستحبة ومجون لذيذة ، وأخذت تروى النوادر عن عملها فى المسرح والسينما وتحكى عن حياتها وراء الكواليس ، ومغامراتها مع المنتجين والمخرجين .

وظللت أجد فى حديثها تسلية ومتعة حتى بدأت الكأس تثقل عليها وأخذت تخبو رويدا رويدا ذبالة المرح التى أشعلتها بضعة الكئوس الأولى ، وبدأت تغمرها موجة من الحنين الحزين .. وكف لسانها عن الثرثرة ليستعيض عنها بالتنهدات والآهات وبدت عليها هيئة العشاق السكارى .

وهنا أحسست أن مشكلتى قد بدأت تتعقد .. وأن علىّ أن أبدأ مهمتى الشاقة فى التخلص منها دون أن أخذلها أو أولمها .

وقرعت المائدة بكأسها ومدت ساقيها وألقت برأسها الى الوراء وأطلقت تنهيدة حارة ، ثم سمعتها تهمس فى شبه أنين :

– دنيـا !

ووجدت أن عليّ أن أقطع سلسلة التنهدات ، وأن أحسر عنها موجة الحزن المرهفة التى تعقب فى نفوس السكارى موجة المرح .

وقلت ضاحكا :

– سأروى لك آخر نكتة سمعتها .

ورفعت اليّ رأسها فوجدت فى عينيها عبرتين وعادت تقول فى صوت خافت وكلمات بطيئة متقطعة :

– بل سأروى لك أنا أول مأساة عرفتها .

ومدت يدها فوضعتها على ظاهر يدى وأطبقت كفها عليها ثم رفعتها الى شفتيها ومست باطنها فى رفق .

وأحسست بأنفاسها تلهب أصابعى .. ووجدت أن المسألة تتطور سريعا .. وأن عليّ – ما دمت لا أريد المغامرة – أن أضع حدا لها .

وسحبت يدى .. فسقطت يدها على المنضدة .. وقلت وأنا أهم بالوقوف :

– يبدو أنك متعبة .. وأظن من الخير أن أنصرف ، وأدعك تسترحين .

وانتفضت كأنما لسعتها عقرب وتساءلت وقد فغرت فاها :

– تنصرف ؟ لماذا ؟

– الوقت متأخر .. وأنت متعبة .

– أنا لست متعبة .. انى فقط سعيدة ، وأنا أبكى عندما أكون سعيدة .. أجلس أرجوكِ .

وجلست . لقد كان علىّ أن أحتمل .

وعادت المرأة المخمورة ، الباكية من فرط السعادة ، تواصل سلسلة تنهداتها السعيدة .. وتهمس الىّ فى صوتها المبحوح :

– ألم تذق الحب ؟

– ذقته مرارا .

– مرارا ؟ أنت اذا لم تذقه .. ان الحب لايذاق الا مرة واحدة ..

– اما ان ترديك صريعا . او تبعثك حيا .

– وماذا فعلت بك أنت ؟

– أردتنى صريعة بالطبع .. لم تدع لى سوى هذا الحطام الذى تراه .

وخشيت أن تطلب منى أن أبعثها حية فقلت لها مستضحكا :

– أنت ما زلت بخير .. أنك فى أوج صباك .

– صباى ؟! كم تعطينى من العمر ؟

وأنا خبير بعمر النساء .. أعرف أنه لايمكن أن يتعدى الثلاثين .. ولا بعد مائة عام ، وأنهن يعقدن على هذا السن فلا يتجاوزنه أبدا ..

أعرف كذلك أنهن جميعا تزوجن فى الثالثة عشرة ، وأنجبن الإبنة الأولى فى الرابعة عشرة .

وقلت لها لكى أقطع عليها خط الجدال .

– ثلاثون عاما ؟

– انقص عامين .

– ثمانية وعشرون ؟

وهزت رأسها موافقة .. وهززت رأسى مسلما . لم يكن هناك وقت ولا داع للجدل حول عمر المرأة الهاذية .. لتكن فى الثامنة عشرة إن أرادت .. المهم هو أن تتركنى أنهض ، وهممت بالنهوض مرة أخرى عندما أحسست بكفها فوق كفى وسمعتها تهمس :

– كنت فى الثالثة عشرة .

وتوقعت أن تقول (عندما تزوجت) ثم تردف بالجملة الطبيعية (وأنجبت ابنتى الأولى فى الرابعة عشرة) ولكنها خذلتنى وقالت :

– عندما أحببت .

وكان علىّ أن استسلم لسماع قصة حبها .. الذى أرداها صريعة . وتركها حطاما .. واستمرت تتحدث فى صوتها الخافت وتنهداتها المتقطعة :

– وكنت وقتذاك .. على النقيض مما تراني .. كنت سمينة .. سمينة جدا .. وكانت أمي فخورة بسمنتي .. كأنما كانت تثبت بى قدرتها على التغذية .. أو كأنما كنت لديها وزة أو بطة ، ولم تكن

سمنتى كطفلة شيئا مزعجا .. بل كانت أمرا مستحبا .. وكنت طفلة نموذجية اذ كان وجهى جميلا متوردا ، وأنت تدرى قيمة سمنة الجسد وحلاوة الوجه فى الأطفال .. ولكن هذه السمنة المستحبة بدأت تنقلب أمرا بغيضا ، ولاسيما أنها أخذت تزداد عاما بعد عام ، وبدأت أضيق بسمنتى .. بعد أن بلغت الثالثة عشرة .. ودخلت فى دور المرأة .. ورغم ضيقى بها لم أكن أجدها شيئا مخيفا .. حتى أحسست بالحب .

– أحسست بالحب ، وأنت فى الثالثة عشرة ؟

– أجل .

– أهذا هو الحب الذى حطمك ؟! انه عبث صبية .

– انتظر حتى أروى لك .. كان يقطن على مقربة منا ، وكانت بين أمى وأمه صداقة جيرة ، وأحببته أنا .. أحببته حبا حقيقيا . وليس عبث صبية كما تقول .. وأحب هو أختى النحيلة .. النحيلة بالنسبة لى طبعا .. أو ربما لم يحبها .. بل عبث معها .. ما سميته أنت عبث صبية .. ولم يحاول أن ينظر الىّ فقد كان جسدى السمين .. لايمكن أن يجعل منى أكثر من مادة للفكاهة والضحك .. وطويت مشاعرى فى صدرى .. وكانت كتل الشحم الراسخة عليه .. أسمك من أن تشع عاطفة أو احساسا .. كنت يائسة منه يأسا مطلقا .. زاده ما سمعته من أمه .. من أنه يكره السمان .. ويحب الفتاة الخفيفة كالفراشة .

وتستطيع أن تتخيل أية عقد ركبتها السمنة فى نفسى .. ولاسيما وأنا أسمع فى كل آونة من أمى هذه الجملة التقليدية (لو وضع وجهك على جسد أختك .. كوّنتما أجمل مخلوق فى العالم) .

وكان وجهى جميلا حقا .. ولكن ماذا يمكن أن يجدينى وهو على هذا الجسد الهائل .. لقد كنت على استعداد لأن أمنحه لأختى .. أو لأى مخلوق اذا استطاع أن يأخذ معه هذه الكتل الشحمية التى ترسب علىّ .

وسمعت من أمه ذات مرة أنه قال ان وجهى جميل .. فبدأت أحدق فى المرآة .. وأحسست بشىء من الاعتزاز به .. ونفذت الى نفسى بارقة أمل لأول مرة .

ان هناك ما يعجبه فىّ .. وأنا أستطيع أن أفوز بحبه .. لو حطمت هذا السد الكائن بينى وبينه ، أعنى : جسدى .

وهنا بدأت معركة هائلة .. بينى وبين جسدى .. أو على وجه أدق .. الكتل الشحمية المرصوصة عليه .

وصممت على أن أكسب المعركة .. فقد كنت أشعر أنها معركة فى سبيل حياتى .

وسافر هو وقتذاك فى بعثة الى أوروبا ، وأحسست بشىء من الغبطة ، وبدا لى أن سفره كان تدبيرا من عند الله حتى أخلو بجسدى فى المعركة .. وحتى أفاجئه عند عودته بمخلوقة أخرى .. تكون أهلا لحبه .

واندفعت فى المعركة .. بجنون وقسوة .. وبغير رفق ولا هوادة ، ولست أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل .. المهم هو أنى كسبت المعركة .. والدليل الواضح هو هذا الهيكل الذى تراه أمامك .. انتصرت .. ولكن بثمن .. ثمن ضخم .. كاد يكلفنى حياتى .

لقد أعيانى (الرجيم) الحاد .. والإجهاد المضنى .. وبدأت كتل الشحم تنهار ، وتنهار معها قواى ، وعندما بدأت أجنى ثمار المعركة وأختال بجسدى الضامر النحيل .. خررت صريعة .. بعد أن أصبت بنزيف فى الرئة .. عرضنى للإصابة بالسل .. وكاد يدمر حياتى .

وصمتت المرأة وبدا عليها الإعياء وانتظرت أن تقول شيئا عن نتيجة انتصارها .. عن الهدف الذى من أجله دخلت المعركة .. عن الربح الذى كانت ترجوه ، والثمن الذى كانت تأمل فيه .

وطال صمتها حتى اضطررت الى أن أستحثها قائلا :

— وصاحبنا .. ماذا فعلت معه ؟

ورفعت كتفيها وأطلقت من أنفها ضحكتها القصيرة المريرة الساخرة :

— لاشىء .. لاشىء أبدا .. عندما عاد .. كنت أرقد صريعة الداء .. وكانت جيرتنا قد انتهت منذ فترة طويلة .. ولم يكن لديه أقل فكرة عنى .. كنت بالنسبة له شيئا مجهولا ، وعندما شفيت من الداء — ان كنت قد شفيت — طوتنى أعاصير الحياة .. تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. واندفعت ألاطم أمواج العيش .. فلم يبق منى أكثر مما ترى .. لقد ضاع انتصارى فى المعركة سدى ، وذهب ربحى فيها هباء .

ومددت يدها مرة أخرى لتضعها على يدى ، ولكنى سحبت يدى ونهضت .. كانت الساعة قد بلغت الثانية وكان علىّ أن أعود الى البيت .

ورأيتها تتطلع الى فى جزع متسائلة :

– إلى أين ؟

– أظن الوقت قد حان للعودة .

ونهضت متساندة الى المنضدة ونظرت الىّ نظرة راجية :

– ألا تبقى قليلا ؟

– سآتى اليك مرة أخرى .

وكنت قد وصلت الى باب الحجرة وفتحته مصمما على الخروج .. ومددت يدى أصافحها مودعا .. وأمسكت بيدى لاتريد أن تتركها ، وهتفت فى توسل أليم :

– ألا تريدنى ؟

وأحسست أنى أذللت المرأة باضطرارها الى عرض نفسها .. وخيل الىّ أن خير ما أفعل هو أن أعوّضها بالنقود .. وأن أدفع لها ثمن ما كان يجب أن أفعله .

ومددت يدى فأخرجت بضع ورقات مالية ، ثم دسستها فى يدها .

وبدأ عليها ألم مروّع كأن الأوراق جمرة لسعتها ، ووجدتها تطبق عليها بعصبية وتدفعها الىّ وتهمس :

– أهذا هو الذى أقبضه بعد طول انتظار ؟

وفجأة .. وكما يبرق وميض البرق .. بدت لى فى ملامحها الشاحبة الهزيلة .. صورة قديمة باهتة لوجه سمين متورد ممتلىء .. وجه طوته الأيام ومحاه الزمن .

وتذكرت بيتنا فى حى السيدة .. والصبية الصغيرة السنمينة التى لمحتها فى دارنا مرة أو مرتين .

أحسست بأنى أكاد أتهاوى فى موضعى ونظرت الى الطير الجريح وهو يترنح أمامى وقد بدت فى عينيه نظرة عتاب أليم ، وانساب الدمع من مآقيه .

وشددت على يدها فى صمت مشدوه دون أن أجسر على أن أقول شيئا .. وانحدرت على الدرج كالهارب من شبح ، أو العائد من جنازة .

وعندما وصلت الى الطريق رفعت رأسى ، فوجدت شبحها فى النافذة العالية تلوّح بيدها فى بطء وقد أحاطت بها الرقعة الداكنة والنجوم المتناثرة وقطعة القمر المختفية وراء السحب .

وانطلقت بى العربة وأنا أطبق على عجلة القيادة بيد ، وباليد الأخرى أطبقت على الأوراق المعادة .. أو على الثمن المرفوض .

★ ★ ★

دموع في ليلة حمراء

كانت بداية ليلة حمراء .. وكل شيء بدا معدا بمهارة وذوق واتقان ، وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيقى ناعمة ، ولهب حار يتراقص فى جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح أحمر أنيق .. تعاونت كل هذه المركبات .. بالإضافة الى الأنثى الساخنة المتعطشة المتأهبة .. على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج المشاعر ، ويدفع الدماء حارة فى العروق .. ويهمس أو يصرخ .. فى غير تحفظ ولاحذر بأن فعلا ما - مما يسمونه منكرا - على وشك أن يحدث .

وكانت تجلس متربعة على أريكة منخفضة فى ركن الحجرة وقد شمرت كمى وساقى بيجامتها الصوفية الفضفاضة المخططة .. التى تعوّدت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه .. وبعد أن تنزع عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئا برأسه على كتفها ممددا ساقيه على الأريكة .. وأحس بأصابعها تعبث فى شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

– أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها فى قبلة قصيرة ثم عاد يحملق فى اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس فى حرارة :

– انى أحبك .. حبا كامنا فى أعماقى .. أكتشفه كلما خلوت الى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقبل .. وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

– وأنت ؟

– انى أعزك ..

– ومن تحب اذن ؟

– لا أحب أحدا .. أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

– هذا ليس حبا .

– هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

– اذن فليس هناك من تمتلكك ؟

– أجل .

– ان فى هذا لى بعض العزاء .. وبعض الأمل فى أن أمتلكك يوما .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأسا من فوق المنضدة ، ورشفت منه رشفة .. ثم أعادته .. وتساءلت فجأة :

– ألم تحب يوما ؟ ألم يمتلكك أحد ؟ أأمضيت حياتك هكذا .. لاتحس بنعمة الامتلاك ؟ أتجلس على قارعة الحياة .. لاتعرف سوى الإيجار .. ايجار نفسك وايجار الغير ؟

وضحك وقال وهو يرفع اليها عينيه :

– الإيجار يمنحنا نعمة الحرية .. ومتعة التغيير والتبديل والانطلاق ، وقتما نشاء وحيثما نشاء .

– ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة .. والحب ؟ ما رأيك فيها ؟ .. لقد كنت أظنك من قراءتى لك .. لاتفعل شيئا سوى الحب .. عجيب هذا التناقض بين ما نتوهمه فى الكتاب ومانجدهم عليه .. أمعقول أنك – مع كل ما كتبت – لم تحب أبدا ؟ لابد أن تكون اذن مخادعا كبيرا !

ولم يجب ، وبدا فى صمته كأن الحديث لايعنيه فهمست به عاتبة :

– لماذا لاتجيب ؟ حدثنى عن الحب ؟

وحوّل اليها بصره ناظرا اليها فى شيء من الدهشة وقال متسائلا :

– ماذا بك الليلة ؟

– انى أحبك ، واذا كنت لاتريد أن تبادلنى الحب .. فبادلنى أحاديث الحب .. ألم تحب ؟

وعاد يحملق فى اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب فى لهجة مقتضبة وصوت خافت :

– أحببت مرة .

– حدثنى عنها .. متى ؟ وكيف ؟

وبدأ كأنما ينفض عن نفسه شبحا جثم عليه وقال وهو يمد يده ليتناول كأسه ويهم بالنهوض :

– دعينى من هذا .. سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقته حيث كان وقالت فى اصرار :

– لا أريد أن أسمع نكتا .. أجلس وحدثنى عن الحب ..

وأحس بأصابعها تعاود العبث فى شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها تتسللان الى جبينه وعينيه ، وغمرته بموجة حنين جارفة أثارت فى نفسه شجنا كامنا وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانبا وأخذت الألفاظ تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه .

– بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن احدى بلدان الساحل ، وقرأت رسالتها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التى يحملها البريد الىّ طالبة صورة أو امضاء أو كتابا أو اجابة لبضعة أسئلة أو حلا لمشكلة .. ورددت عليها فى بضع كلمات مهذبة مهديا اياها الصورة أو الكتاب – لست أذكر – الذى طلبته ، وردت علىّ – كما يردّ عنّى سواها – شاكرة فى رقه .. واسترسلت تعبر فى بضعة سطور عن

اعجابها بي وتقديرها لى .. ولم تكن فى هذا أيضا تفترق كثيرا عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبى ، وبدأ التقدير يتطور الى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى فى خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلات الروحية وغيرها من التغييرات التى لايفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التى يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان علىّ أن أجيبهن جميعا كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصا فى ردّى على ألا أفرط فى الرقة .. فأمنحهن أملا أحمق أو أفرط فى الجفوة فأصدهن صدا موجعا .

وحملت الىّ احدى رسائلها أمنيتها فى أن ترانى قائلة : ان تلك قد باتت أقصى أمانيها وأنها لابد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها الىّ غيرها من الرسائل .

وأنا أعرف نفسى جيدا .. أعرف أنى لاأستحق شيئا من هذا كله ، ولم أملك الا أن أضحك من نفسى ساخرا أن تكون رؤياى قد أضحت أمنية .. لكائن من كان .. فما بالك بهؤلاء الصغيرات العزيزات اللاتى أحب أنا نفسى رؤيتهن !

وهيأت لى الظروف فرصة السفر الى بلدتها .. ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هى وغيرها من أصحاب الرسائل المعجبة اللاتى يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتى . فأرسلت اليهم أنبئهن بقرب قدومى اليهن .

وكان علىّ اما أن ألقاهن جملة فى موعد أحدده لهن فى الفندق الذى أنوى النزول فيه .. أو ألقاهن فرادى ، كل فى موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية فى أنها توفر علىّ الوقت والجهد فى الحديث ، والثانية توفر علىّ الحرج فى جمعهن سويا وفى خذلانهن عندما ترى كل منهم أنها ليست الوحيدة التى أخصها بالكتابة واللقاء .. وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى فى الفندق بمظاهرة فتيات .. ووجدت أنى أول من سيحس بالحياة والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمسا .. كنت أحس من كتابتهن شيئا – حرارة أو لطفا أو رقة – يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب الى نفسى .

وكانت هى .. ضمن هؤلاء الخمس .. اللاتى كتبت اليهن أنبئهن بقدومى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدىّ من الفراغ سوى
بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة
الظهر وتنتهى فى التاسعة .. وقدرت آلا يزيد [illegible] .
نصف ساعة تاركا ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لايحدث ارتطام بينهن .

وذهبت الى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبيل الرابعة فى الأمسية الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن التراس المطل على

الشاطىء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائمن وأمامها موعد لقاء كل منهن حتى لا أخلط بينهن .

وكنت أعرف سلفا أى نوع من الفتيات أوشك أن ألقى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيها بمتعة منتظرة .. بل أقنعتها بأنها تؤدى واجبا لابد من تأديته .. ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء .. وأكثر من هذا كنت أعرف من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى .. وأن علىّ أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن الى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة – موعد قدوم الأولى – وأنا أرقب مدخل التراس ، محملقا فى كل قبيحة صغيرة مرتبكة ، معتمدا على أن تعرفنى هى فتتجه الىّ .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد .. ونصف ساعة ولم يحضر أحد .. وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجا الأولى من حسابى ، تاركا لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدا فى انتظار الثانية .

ولكن .. لم يكد يتجاوز العقرب النصف ببضع دقائق .. حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، واحساسى يرهف .. وأخذت أرقبها جيدا .

ولم أتوقع قط أن تكون احدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. اذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن .. حقيقة كانت الى حد ما صغيرة .. والى حد ما .. مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شىء .. ولكنها لم تكن قبيحة أبدا ..

بل كانت جميلة .. الجمال الأمثل الرقيق الذى يمس شيئا فى أعماقى .. والذى أشعر أن كل حواسى قد شدّت اليه .

وأخذت أرقبها .. ليست مراقبة منتظر موعدا .. أو متوقع لقاء .. بل مراقبة ملهوف مأخوذ .. متناسيا كل شيء عن معجباتى وعن جدول مواعيدى .. وتطايرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان يفرضه علىّ الموقف فرضا .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد ووجدت الحمق البيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى الى أن أتمنى أن تكون احداهن .. وأن أذهب اليها لأقول لها أنى أنا هو أنا .. وقبل أن أراجع حماقتى الصبيانية كانت عيناها – فى جولتها الباحثة – قد وصلتا الى الركن الذى أجلس فيه .. والتقتا بعينى .. وفى ثوان معدودات تصاعد الدم الى وجهها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة جميلة وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة .. ثم وجدتها تتجه الىّ فى خطوات سريعة وجلة .

ونهضت أتلقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب علىّ أن ألقى بها معجبى . وشدّت على يدى ، ومازالت تعلو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة ..وقالت لى :

– لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة .. انى أشعر أنها ليست المرة الأولى التى أراك فيها .. لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى بعينيك .. وأنت .. أعرفتنى ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعدا وأجلس قبالتها .. محدقا فى وجهها :

– طبعا عرفتك .

ولم أكن مدعيا فى قولى .. فقد أحسست أنى عرفتها من الصورة المرسومة فى باطنى منذ عشرات السنين .

ورمقتنى بعينيها الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

– من أكون ؟

ولمحت الساعة فى معصمى .. كانت الخامسة الا ربعا .. وأحسست أنى قد أسقط فى يدى .. من تكون ؟ الأولى .. أم الثانية ؟ .. كوثر .. أم بثينة .. الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوثر متأخرة فى موعدها .. أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانتت تلك .. أو تلك وكانت هذه .. لجرحت مشاعرها .. وأظهرت أنى لا أتوقع مجيئها هى .. بل كنت أنتظر أخرى .. وأنى أخطأت فيها .. وتحتم عليها الرحيل لتترك مجالا للأخرى التى قلت اسمها .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت علىّ بمثل هذه اللهفة ، وبعد أن أقبلت أنا عليها بلهفة أشد وكأنى لا أنتظر سواها .

وكانت لم تزل تنظر الىّ فى ابتسامتها الرقيقة ، وقد بدت عليها أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تتساءل :

– لم تقل من أكون ؟

– وكان علىّ أن أقول شيئا لايفضح أمرى ، وأن أستدرجها فى الحديث ، علها تفصح فى أقوالها عمن تكون .

وقلت محاولا اكتساب وقت يمنحنى فرصة التفكير :

– أتعتقدين حقا أنى لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهنى أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف منها حقيقة موعدها ، فاذا كان الرابعة فهى كوثر ، واذا كان الخامسة فهى بثينة .

وقبل أن تجيبنى أردفت قائلا :

– كيف لا أعرفك .. أليس بيننا موعدك ؟

– أجل .. لقد تأخرت عليك .. وكنت أخشى الأ أجدك .

– أتتاخرين دائما فى مواعيدك ياكوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها .. ولم يكن من العسير علىّ أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة كوثر .. ولكنى أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة الا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثانى ، واذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتى مبكرة عن موعدها .. ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائما أن تنيلنا مانتمنى .

وتملكنى قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمنى مخلوق – أيا كان – من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامى .. وأحسست أنه لاتوجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها منى بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشىء الذى أثارته فى أعماقى .. يملؤنى رغبة فى أن أفر بها بعيدا .. وتلفت حولى وأشرت الى الجرسون ، وبدل أن

أطلب لها شيئا نقدته حسابه عما طلبت وبمنتهى البساطة ، وبمنتهى الحمق وقلة الذوق نهضت قائلا :

– المكان مزدحم .. (ولم يكن مزدحما) .. ألديك مانع من أن نتمشى على الشاطىء .. أو نذهب الى أى مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلقائى كانت على استعداد لتغطية كل مساوئى وتصرفاتى غير الطبيعية ، فقد رأيتها تتبعنى فى استسلام ومازالت يكسو وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلالئة .. وأحسست بالراحة تملأ نفسى وأنا أسير واياها متلاصقين على رمال الشاطىء .. ووجدتنى أستعيد رسائلها فى ذهنى .

كانت أرقهن قولا ، وأحرهن مشاعرا وأجملهن روحا ، وأشدهن صلة بى واجتراء فى الحقوق علىّ ، ولم أكن أشك – من سابق تجاربى – فى أنها لابد أن تكون أقبحهن شكلا .. فقد علمتنى التجارب أن جمال البعد غالبا ما يتناسب تناسبا عكسيا مع جمال القرب ، وأن الله يوزع المزايا على الناس بقدر .. اللهم الا قلة شاذة يتجمع فيها الفضل كله أو السوء كله .

وتحدثنا كثيرا ، ولم يصعب علىّ أن أزيل عنها الرهبة الأولى . وأن أجعلها تؤمن بسهولة .. بعد أن كانت – على حد قولها – لاتصدق أنها معى وأنها تسير بجوارى جنبا الى جنب .. بأنها أصبحت أقرب الأصدقاء الىّ .

فعلت هذا بلا جهد ولا كلفة .. لم أتكلف سوى أن تركت نفسى على سجيتها . وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيتها

عندما أكون بجوار شخص أحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى التى رأيت فيها هذه المخلوقة .. أنى أحبها .

وأنا على مرّ السنين .. وعلى ما يفرضه علىّ السن من تؤدة واحتشام .. لا أستطيع أن أنتزع نفسى من طفولتى وصباى فى لحظة انسجامى مع من أحب ، فانطلقت مع الحلوة الرقيقة المرهفة السائرة بجوارى أمرح وأضحك خارجا عن كل قيود الكلفة والتزمت داخلا فى نفسى الشاعرة الذائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لى الكثير .. حدثتنى عن أمها وأبيها وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عند بدء قراءتها لى وكتابتها الّى وأحاسيسها نحوى .

وكان البحر قد اقتضم الشمس وأخذ فى ابتلاعها على حافة الأفق . وامتدت يد الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة فى الشفق . ودون أن نشعر وجدنا الظلام يحوطنا فيما أحاط .. واستقر بنا المقام على حافة صخرة يتطاير من حولها الرذاذ ويتلاطم الموج .. ورأيتها ترفع الّى وجهها وعلى شفتيها ابتسامتها المشرفة وهى تتساءل فى استحياء :

– لم تقل لى حتى الآن .. كيف وجدتنى ؟

– لم أقل لك حتى الآن ؟ . أحقا تعنين سؤالك هذا ؟

– أقلت لى ؟

– لم أقل بلسانى .. ولكن ألم تحسى أنت كيف وجدتك ؟ وبعد أن نسيت نفسى .. ونسيت كل ما حولى وأخذت أسير معك كصبية العشاق تسائلينى كيف وجدتك ! لقد كان مفروضا ألا يزيد

لقائى لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألقى بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكد أراك حتى اختطفتك وفررت بك الى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتك ؟

وبدا على سيمائها التأثر وأطبقت شفتيها على ابتسامتها الدائمة .. وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها وحدقت أسفل الصخرة :

– عجيبة هذه الأحلام !

– كيف ؟

– لقد حلمت ليلة أمس أنى معك .. كان حلما لذيذا ما قضيت فى حياتى لحظات أمتع منه .

– قصّيه علّى .. لعلّى احققه لك .

ورفعت رأسها وارتسمت على شفتيها ابتسامة مستحيية وقالت فى حياء لذيذ :

– لاأستطيع .. انى أخجل أن أقصه .

– أين كنا ؟

– فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول .. فعرفتك ، وادعيت أن عنواننا هو ماتريد ، وتحايلت على ادخالك .. وجلست معى فى الأرجوحة الكائنة أسفل حجرتى والتى تعوّدت أن أقرأ فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت انك تعرفها وأنك تريدنى أنا ، وكان الليل مخيما ، والسكون سائدا ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ سويا .. ثم أدرت لك الموسيقى .. التى كنت أطلب منك فى رسائلى سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

— وبعد ؟ أكملى الحلم .. حتى أحققه لك .

— لا أستطيع .

— أنهضت معك ؟ ..

— وأشارت برأسها :

— أجل .

— وأمسكت بيدك ؟ ..

ومددت يمناى فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل :

— وضممتك بيدى ..

وأحطتها بذراعى الآخر فى رفق روجدتها تغمض عينيها كالمستغرقة فى حلم ، وهى تشير برأسها اشارة خفيفة (أجل) .

وفى صمت وضعت شفتى على شفتيها فى مسة خفيفة وبدا لى وجهها فى الظلام كأنه وجه قديسة . ومضت برهة قبل أن تفتح عينيها المغرورقتين وتهمس فى لهجة ذائبة :

— لست أدرى كيف أشكرك .. ما ظننت أن حلمى سيحققه الله بمثل هذه السرعة .

وافترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا محمل القلب بأجمل ما حمل قلب بشر من حب .

واستمر الحب بيننا يزداد على مرّ الأيام .. حب حقيقى كاعنف ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهيام ، وانكمشت رسائل المعجبين بعد أن تركز كل ردّى على رسالة واحدة .. حارة ملتهبة .

وقد يبدو الحب غير متكافىء الكفتين ، وقد يثير الدهشة والعجب ألا يسقط ماهرا محنكا خبيرا بالنساء مدرعا بتجاربه ضد فتنتهن سوى طفلة بريئة عاطلة من كل قدرة وخبرة .. ولكنى أعتقد أن هذا الشيء يجب ألا يبعث على الدهشة .. فلست أرى هناك مقاييس معينة يمكن أن نخضع لها الحب .. بل يبدو لى أن المسألة على النقيض ، وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيرا على الكتاب والفنانين وأصحاب التجارب هن أشدهن سذاجة وبراءة وبساطة .

على أية حال .. لست أجد هناك ما يدعو للمناقشة ، أو التبرير أو الاعتذار .. فالأمر قد وقع .. ولم يكن هناك مفر من التسليم بالواقع . وبدأت أدبر أمرى وأنظم حياتى على أساس حالتى الجديدة .. حالة أنسان محب جاد فى حبه مخلص لمن يحب .

وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللهو .. تصيبنى حالة من الزهد والقناعة .. وتساقطت الرفيقات من حولى كما تتساقط أوراق الشجر .. واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عنى من الخطايا ما عجزت عنه نذر السماوات وعظات الرسل .

وبلغت بى الجدية فى مشاعرى الى الحد الذى هانت على فيه حريتى .. ولم يعد الزواج فى نظرى مصابا يتحتم تجنبه وبلية يجب اتقاؤها ، بل وجدت نظرياتى فى الزواج تنقلب رأسا على عقب واذا بتفكيرى ينتهى الى أنه خير وسيلة للاستقرار والطمأنينة .

وكنت أذهب للقاء فى كل فرصة تسنح لى .. صيفا وشتاء . ولم يتعد اللقاء بيننا صخرة الشاطىء أو ركننا فى أحد مقاهيه .. ولاتعددت علاقتنا .. مسة الشفاه .. التى حققت لها بها أول حلم .

وبدأنا نطرق حديث الزواج طرقا خفيفا ، وحاولت هى تجنبه فى أول الأمر ليقينها مما تعرفه عن آرائى وطريقة حياتى أنى أكرهه .. ولقناعتها بما كان بيننا .. وعدم محاولتها التطلع الى تجاوزه أو الطمع فى أكثر منه .

وزاد حديثنا عن الزواج والعائلة ، وربة البيت والأولاد فى لقائنا ورسائلنا ، حتى انتهى الأمر بيننا الى قبوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منته .

ولم يبد لنا اندفاعنا فى الحب .. اى نوع من انواع الموانع تقف امام رغبتنا فى الزواج .. لا ارادة اهل ، ولا فارق سن ، ولاشىء ابدا .. كل ذلك كان حصى صغيرا امام تيار حبنا .

وحملنى القطار اليها ذات ليلة .. بعد اتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها .. وجلست فى عربة القطار اضيع الوقت بمراجعة مقال وبضعة بروفات ثم اعدتها الى الحقيبة واخرجت بضعة الرسائل التى تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لى الوقت بفضها .

ولم اجد بالرسائل جديدا .. نفس الطلبات ونفس الأسئلة ونفس المشاكل .. حتى توقفت امام احداها ومررت بصرى بخفة على بضعة الأسطر الأولى .. ثم وجدتنى اتمهل وتمعنت فى القراءة وقد تملكتنى الدهشة .

انى أذكر الرسالة كلمة .. كلمة .. لقد كانت كما يلى :

(لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد فى النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب اليك من قبل لامنعك من الاستمرار فى الطريق الذى انتهى بك الى ما وصلت اليه ، ولكن لم يخطر لى ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريقا واحدا مازال يضمكما سويا ليؤدى بكما الى هذه النهاية المذهلة . كل ما رأيته هو رساله منك اليها تبينت منها أنها رد على احدى رسائلها ، وأحسست برجفة عندما قرأت امضاءك .. ولم املك أن أزجرها عنك ،وآمرها بالكف عما سميت عبث اطفال) .

(ما أحمقنى .. كان يجب أن أقول لك أولا من أنا .. ولكنى افترضت أنك تعرفنى كما أعرفك ، أنا الآن – ام كوثر – وأظن هذا تعريفا كافيا بالنسبة لك .. لانك لاشك تعرف كوثر جيدا .. تشهد على ذلك كومة رسائلك الملتهبة اليها) .

(أظن كوثر قد حدثتك عنى .. وأظنك قد كوّنت فى ذهنك صورة معينة لى .. وان كنت أعتقد أنه لايمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعة لى .. والتى يمكن لو قلبت اليوم ذهنك أن تجدها قابعة ضمن عشرات أو مئات القابعات فيه) .

(لست أدرى ما اذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسى .. وان كنت سأحاول .. فاذا فشلت فيجب عليك أن تأخذ كلامى قضية مسلما بها ، فأنا أذكرك جيدا ، لأنك تمثل لى خطيئة واحدة فى حياتى .. بينما أمثل فى حياتك واحدة من آلاف الخطايا .

(لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتابتك .. تأثرا قد يبلغ حد الوله . ودعوتنى الى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطيع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكانت لم تزل أمامى بضع ساعات على القطار .. وذهبت معك بعد أن دعتنا واسطة التعارف .

(وضمنا واياك بيتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها .. أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة .. أذكر كل هذا جيدا ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو الىّ فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة .. وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

(وتركتك بغير ندم والى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شىء .. كان يتحتم علىّ أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

(ونسيت كل ما كان من أمرى معك .. وصددت نفسى عن القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين اليك مرة أخرى .. وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

(وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجدك – مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال – أناى من إن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسالتك اليها وعلمت أنها كتبت اليك فنهيتها عنك .

(ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنة .. لم يطف شبحك بذهنى مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك اليها .

(عجيب هذا الذى حدث ! كيف ؟ ! ومتى ؟ ! ولماذا ؟ ما الذى دفعك اليها ؟ وما الذى دفعها اليك ؟

(ولقد رأيت صورك ، وقرأت رسائلك ، وعجيب فى نفسى كيف استطعت أن تحتفظ باشراقة وجهك وفتوّة روحك ، ونضارة قلبك .. ان السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيرا .

(وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصعب علّى بالطبع أن أدرك كيف أحببتها .

(ان المسألة في نظرى لاغبار عليها لاسيما وقد كنت معها — على غير ما كنت مع أمها — مهذبا أمينا .. وقصدت واياها الى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى فى آخر خطاب على أن تتقدم لطلب يدها .

(كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك اليه . أمر قد تكون خالي الذهن منه .

(لقد حملت فى كوثر فى الشهر الذى لقيتك فيه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم زوجى ؟ ولكن الشىء الواضح الذى أستطيع أن أجزم به .. هو أنى لم أحمل بعد هذا من أبيها أبدا .

(أنا لا أستطيع أن أجزم بشىء .. وقد يكون أبوها هو فعلا أبوها .. وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك .. أجل قد يكون ذلك ، وقد لايكون .

(واني لم أفكر في المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامي ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها .. والشك يكاد يقتلني .

(لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها ؟ ! .

(لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتني أم وجدتني ضائعة في غمار مغامراتك .. فثق أن ما قلت هو الحق .

(واذا استطعت بعد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب يدها .. اني في انتظارك .

وانقضت الصاعقة لتتركني حطاما عاجزا عن الحراك والتفكير ، وأطبقت على رأسي بكتفي أمنعه من الانفجار والتطاير .. وأحسست بصوت عجلات القطار المنتظمة كأنها مطارق تهوى عليّ وأحسست من تباطؤ سير القطار بأنه يوشك أن يصل الى المحطة .. وودت لو استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى .. ولكن أضواء المدينة بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .

ووجدت نفسي قد جمدت في مقعدي كأني قد أعجزني شلل ، ومر الوقت بطيئا وأنا جاثم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ، وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد في بطء .

وعلي ضوء أحد المصابيح لمحت وجهها يبحث في لهفة بين النوافذ وفجأة التقت عيناها بعيني وأنا متصلق بالمقعد في جلستي الصامتة العاجزة فهتفت باسمي في صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمي تخفت رويدا رويدا حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعتها الظلمات .

وساد الصمت .. صمت أليم موجع .. ومد طرف لسانه يلعق دمعة ساخنة مالحة .. انسابت حتى شفتيه .. ولم تستطع صاحبته أن تكبح جماح دمعها .. تركتة ينساب فى غزارة .

وكان هو أول من تملك نفسه .. ورفع اليها بصره وقال فى مرارة :

– ألم أقل لك .. ان الإيجار خير من الامتلاك .

* * *

ليلة حب

كان يكره نفسه !!

يكره منها ذلك الحذر والتردد والضعف ، والخوف كلما أضحت محطا للأنظار .

لم تكن القدرة هى التى تنقصه .. ولكنها كانت الثقة .. كانت الجرأة والإقدام .

انه لم يكن عاجزا ولاضعيفا .. وكان يملك الجهد والقدرة ، ولكن هذه القدرة لم تكن تستطيع أن تتعدى النطاق الضيق الذى يقوم فيه بالتدريب والمران حيث يشعر أنه ليس هناك من يرقبه ، وأن عمله لاتتوقف عليه نتائج حاسمة أو كسب خطير مرتقب .

فاذا ما خرج من ذلك النطاق الضيق وأحس بالأنظار تتطلع إليه .. وبأن على جهوده تتوقف نتائج خطيرة لنفسه أو لفريقه أو لمدرسته .. طارت من نفسه الثقة .. وضاعت القدرة وبدد الجهد .. وتملكه الاضطراب والخوف .. وتمنى لو استطاع الفرار من الميدان .

تلك كانت شيمته فى كل عمل يؤديه .. سواء أكان عمله ذهنيا أو جثمانيا .. وسواء أكان امتحانا دراحيا أو مبارة رياضية .

ما استطاعت نفسه أبدا أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة .

واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن .. واقتنع هو بتهمتهم .. ولم يكن يملك غير ذلك .. وكل الشواهد .. والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها .. وهو يشعر فى قرارة نفسه .. انه حقا يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام .

ودخل الكلية الحربية .

والكلية الحربية – لمن لايعرفها – أشبه بدوامة فى أيامها الأولى .. التى يطلقون عليها .. أيام المستجدين .. والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامة .. لايميز فيها واحد عن غيره .. ولايعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته .. بل تظل الدوامة تلف وكأنها تلعب به (دوخينى يالمونة) فلا تتركه عند نوبة نوم الا وقد أضحى جسدا هامدا لاتبعث فيه الحياة الا نوبة الصحيان .

وأضاعت رهبة الكلية ومشقتها والذعر الذى يشيعه صف الضباط فى نفوس المستجدين .. والبقية الباقية .. من الثقة التى كان يحتفظ بها لنفسه .. فى نطاقه الضيق .. عندما كان يشعر أنه وحده ليس هناك من يرقبه .. لأنه لم يشعر قط فى الكلية أنه وحده .. وأنه ليس هناك من يرقبه حتى فى ساعات النوم .

ووجد نفسه .. يتحرك فى دوامة الكلية ضالا نكرة مجهولا .. كأنه فرد فى قطيع متشابه لايميزه مخلوق ، ولايشعر به انسان .

حتى أحس ذات يوم بأنه ليس مجهولا تماما .. بل ان هناك – لدهشته الشديدة – من يعرفه ويميزه .

لم يكن مخلوقا ذا بال .. ولا مكانة ولاحيثية ، ولكنه مع ذلك سرّه أن يميزه .. والإنسان النكرة المجهول .. لايدقق كثيرا .. فى حيثية من يمنحه شرف التمييز بين القطيع المتشابه المجهول .

ومع ذلك فلم تدم فرحته بالتمييز طويلا .. عندما اتضح له أن الرجل .. قد منح هذا الشرف جميع زملائه من الطلبة .. وأنه قد ميز القطيع فردا .. فردا .

ولم يمنع ضياع فرحته بالتمييز .. وسخطه على الرجل الذى أشرك الكل فى التمييز والمعرفة واعجابه المفرط بذكائه ودهشته الشديدة من قوة ذاكرته .

كان معقولا أن يميز الرجل صف الضباط فهم قلة معروفة مسيطرة مميزة .. وكان معقولا أيضا أن يعاونه بعض الذكاء المفترض – رغم أميته وتقدم سنه – على معرفة طلبة القسم المتوسط فهم لايزيدون على بضعة عشر طالبا وقد مضى عليه عام وهو يبيع لهم (الاسباتس والسيدر وبقية أنواع الكازوزة) .

كل هذا كان معقولا .. أما أن يميز الرجل دفعة المستجدين بأكملها وقد بلغت الخمسين .. ولم يمض عليها أكثر من شهر فى المدرسة .. فقد كان أمرا بلاشك يستحق كل اعجاب وتقدير .

ولقد وضحت قدرة الليثى (اسم الرجل) لصاحبنا عندما اندفع اليه أول مرة وقد استقر بصندوقه المليء بمختلف أنواع الكازوزة تحت

السلم الحجرى المفضى الى عنابر النوم يرجوه أن يحتفظ (بالبل) حتى يأخذه منه عقب انتهاء الحصة .

(والبل) لمن لا يعرفه من غير العسكريين ، هو مجموعتان من الأكياس المزررة توضع فيها الطلقات وتشدان الى الكتفين بحمالات والى الوسط بحزام ويلبسهما الطلبة فى طوابير التمرين على البندقية .

ولم يكن صاحبنا وحده الذى اندفع الى الليثى يرجوه الاحتفاظ بالبل ، فقد اندفع بعض أفراد الفرقة يرجونه نفس الرجاء اذ كانت الحصة تقع بين طابورين ، ولم يكن لدى الطلبة وقت للصعود الى العنابر لوضع البل والهبوط الى الفصل ، ثم الصعود لإحضارها مرة أخرى بعد الانتهاء من الحصة للبسها فى الطابور التالى ، اذ كان المفروض ألا يدخلوا الحصة بها ، وكان الزمن بين الحصص لايكفى للصعود الى العنابر والهبوط منها .

وكان أكثر ما يقلق صاحبنا وهو جالس فى الحصة ، هو ما يخشاه من خلط البل .. ولكن لم تكد تنتهى الحصة ويذهب الى الرجل حتى وجده يسلم كل واحد بلة ، بابتسامة مرحبة وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

وبدا له أن قدرة الرجل على تمييزهم سببها قلة عددهم ، وأنه استطاع ببعض التذكرة أن يعى صورة لكل منهم ويعرف أين وضع بله ، ولم يعجزه بعد ذلك أن يسلمه له .

ولكن الأمر تكرر بعد ذلك ، واستقرب الطلبة كشك الليثى الكائن أسفل السلم .. وازداد عدد الطلبة الذين يحتفظون بالبل عنده .. ومع ذلك فلم تخن الرجل ذاكرته .. بل كان يأخذ من كل منهم بله ،

بابتسامته المرحبة ، فاذا عاد لأخذه سلمه له بلا أدنى تشكك .. بل كان يبدو وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

ومرت ايام المستجدين بصاحبنا وهو يعدو مع القطيع في الدوامة .. نكرة مجهولا .. لايميزه أحد .. ولايحترمه مخلوق .. سوى عم الليثى .

حتى بدأ الخروج فى عطلات الخميس والجمعة ، فاذا به يجد نفسه مميزا ، ومعروفا .. بل وأكثر من هذا مما لايجسر على تحديده بالضبط .. من مخلوق .. أجل وأخطر .. من الليثى .

كان مخلوقا ناعما رقيقا .. وعلاقته بالمخلوقات الناعمة الرقيقة .. كانت كلها فيما مضى .. علاقة من طرف واحد ، فما كانت خشيته ووجله وخوفه واضطرابه ، وحاجته الى الثقة والإقدام تهىء له أكثر من التطلع والتمنى والهيام المطوى فى الصدر والجوى الخبىء بين الضلوع .

وكان المخلوق الناعم الجديد الذى أحس به وميزه ، وربما أكثر من ذلك .. هى مديحة صغرى أختى رأفت أعز أصحابه فى الكلية .

رآها أول مرة فى دار صاحبه ، وقد دعاه ذات خميس لسماع أول اذاعة لأنشودة عبد الوهاب (كليوباترا) .

والصوت منبعث فى سكون الليل .. بشعره الرقيق ، ولحنه العذب ، والناعمة متكئة بذقنها على كفها ومرفقها على ساقها ، وقد مالت فى مقعدها الى الأمام مأخوذة بالإصغاء .. وقد انعكس ضوء المدفأة الأحمر المتراقص على جانب وجهها فبدا رقيقا رائعا بطرف أنفه الأشم وفمه الرقيق المضموم .

وهو موزع المشاعر بين اللحن المنبعث والوجه المصفى وكل ما حوله من تعاون على ارهاف حسه والهاب عواطفه والصوت يردد :

(ياحبيبى ! هذه ليلة حبى   آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وتنهيدة رقيقة تنبعث من صدر الناعمة الحالمة المصغية النشوى .

ولم يكن هناك أعنف من هذا هجوما على قلب ، ولا أحر من ذلك دعوة الى حب .

وأحبها صاحبنا .. بكل ما يملك من عجز وخشية وضياع للثقة .. وفقدان للجرأة والإقدام ، ومرّت أيامه حثيثات سراعا .. وهو مغرق فى حبه السلبى ، وعاطفته المستسلمة العاجزة .

وفى المدرسة بدأت طبيعة خلقه تظهر أشد ما تكون وضوحا وجلاء .. قدرة فى المران والتدريب .. وعجز فى المباريات والمسابقات .. قوة بينه وبين نفسه وضعف أمام المشاهدين . .

وفى كل مرة يحاول التماسك والتجلد والاحتفاظ بثقة فى نفسه وقوته وقدرته .. ولايكاد يشعر بالأنظار تحيط به ، ويحس بأن عليه تتوقف نتيجة المبارة حتى تتسارع دقات قلبه ، وتتوتر أعصابه ويفقد كل سلطان على نفسه .. ولايبقى منه الا انسان عاجز يكاد يخر جزعا واعياء .

وحلّ موعد الحفل العام الذى تقيمه المدرسة آخر السنة وكان أكثر مايخشاه هو حضورها لمشاهدته .

وبدأ الحفل وهو يعلم أنها فيه .. ولكى لانظلمه نقر بأنه بذل أقصى مايمكن أن يبذله مخلوق للسيطرة على أعصابه والاحتفاظ بقدرته

وبثقته فى نفسه .. ولكنه رغم ذلك كان فى مباريات الحفل مثلا للعجز والضعف .. حتى لقد كان فى معظمها السبب الأول لهزيمة فريقه .

وتسلل من الحفل وحيدا .. يائسا .. منهارا .. وقادته قدماه الى أسفل السلم الحجرى .. الى كشك الليثى .

وتلقاه الرجل هاشا مرحبا .. وقدّم اليه زجاجة (سيدر) مثلجة يتصاعد من فوهتها الدخان ، ويعلو صدرها ندى الرطوبة .

وجلس يشرب فى صمت مطرقا حزينا .. وحانت منه التفاتة الى العجوز البادى الرضا والقرارة .. وطاف بذهنه أن يسأله سؤالا طالما تاق الى الاستفسار عنه .. وهو كيف يحفظ الوجوه بمثل هذه السهولة .. وكيف يميزهم فردا فردا ، ويرد اليهم حوائجهم التى يحتفظ بها دون خلط ولا خطأ .

ورفع رأسه ووجه السؤال الى الرجل .

وابتسم الرجل .. ثم اتسعت ابتسامته حتى كشفت عن بضع أسنان معلقة فى لثته .. ثم انطلقت منه ضحكة طروب وأجاب :

– تريد أن تعرف حقا ؟
– أجل .
– على أن تبقيه سرا ؟
– أجل .. أجل .
– انى اميز كلا منكم بظاهرة فيه .. فى وجهه .. فى جسده .. فى صوته .. فى خلقه .. فى أى شىء مميز به .. وأسميه بهذه الظاهرة .. فهذا مثلا ذو الأنف الكبير .. وهذا الطويل وآخر ذو

الرأسين .. وآخر الجعجاع .. وآخر الأخرس .. والحمار .. والعاقل .. والأنيق .. والمفشكل .. والدّهل .. والحدق . هذه كلها أسماء أميزكم بها ولا أخطئها أبدا .. فاذا ما أعطانى أحد منكم احدى حاجياته .. دخلت لوضعها فى الكشك وأرفقت بها ورقة صغيرة كتبت عليها الإسم الذى أميزه به .. فاذا أتى لأخذها رددتها اليه بعد أن أمزق الورقة دون أن يرانى .. وهكذا أبدو كأننى أعرفكم جميعا .. وأرضى غروركم جميعا .

ورغم ما كان بصاحبنا من حزن وضيق فقد أطربته اجابة الرجل .. وكان السؤال الطبيعى الذى يجب أن يسأل بعد ذلك .. والذى يرضى به حب استطلاعه هو (وأى ظاهرة ياترى سميتنى بها ؟ .

ولقد أوشك أن يسأله لولا أن أضاع الفرصة فوج من الطلبة .. أقبل متدفقا على الكشك وحال بينه وبين السؤال .

ومرّت أيام أخر .. وتخرجت دفعته .. وهو هو .. لايتغير طبعه ولاتتبدل حاله .. حتى كلمة حب .. لم يجسر أن يقدم على قولها .. لمن ولهت قلبه حبا .

ولقد فكر فى خطبتها .. ولاسيما بعد أن خطبت أختها الكبرى وعقد قرانها ، ولكنه يتجاوز نطاق التفكير .. لعجزه عن أى عمل ايجابى ، وفقدانه لكل قدرة على الإقدام على شىء ، وضياع الثقة من نفسه .. وأكثر من هذا وذاك ، احساسه بأنها تعرف فيه ذلك العجز والجبن .. ألم يتأكد لها أمره من يوم الحفل ؟ أتراها تحتفظ له بعد ذلك بأى احترام أو حب .

ورحل مع وحدته الى فلسطين ، ولم يكن فى قرارة نفسه يخشى الحرب فى حد ذاتها ، ولكن خوفه كان من نفسه .. كان يخشى أن تخذله ، كما سبق أن خذلته ، فى كل عمل أقدم عليه .

ومرت بضعة شهور وهو محتل بجنوده أحد المواقع ، دون أن تسنح فرصة الاختبار أعصابه ، وامتحان قدرة نفسه .

وفى ذات ليلة علم أن العدو قد نفذ من الخطوط وأنه قد احتل احدى التباب المشرفة على خطوط المواصلات وأنه يهدد بعزل كل المواقع .

وحلت اللحظة الرهيبة ، واستدعى لتلقى الأوامر لكى يسترد بجنوده الموقع الذى ملكه العدو .

واذا كانت أعصابه .. قد خانته فى ملعب كرة .. أو فى ساحة قفز .. أو فى حلقة ملاكمة .. فقد كان أولى بها أن تخونه فى ميدان قتال .. ولقد خانته فعلا .. فقد عاد الى مواقعه .. متوتر الأعصاب .. خافق القلب .. شارد الذهن .. ولم يكن هناك مفر من تنفيذ الأمر .. فان النكوص مستحيل .. ولم يسعه الا أن يلم جنوده .. ويبدأ الهجوم .

وأجرى المراحل الأولى للهجوم .. بطريقة آلية .. وهو يشعر أن الذعر قد ملك عليه نفسه ، وأن زمام أعصابه يوشك أن يفلت منه .. وأنه لولا بقية من تماسك لأسرع بالفرار .

وبدأت المراحل الجدية للهجوم .

واستمرت قواته تتقدم ، وهو يسير مع الرئاسة فى المؤخرة ، وما زالت نفسه المنهارة ترتجف وتنتفض .

وانطلقت قذيفة من مواقع العدو .. فأطاحت ببضعة من جنوده وأبصر بعينيه أعضاءهم تتناثر فى الهواء كأنها رشاش الماء .

وتوالت القذائف .. ودوّت الانفجارات .

وأحس بالدم يجرى فى عروقه حارا .. وبمراجل الغضب والانفعال تغلى فى صدره .

وفجأة .. شعر بأنه فقد نفسه .

أجل .. لقد فقدها تماما .. بذعرها وخوفها .. وتفكيرها .. وخشيتها .. وانطلق وسط جنوده .. بلا وعى .

وهو لايذكر جيدا ما حدث .. فقد كان حقا يتحرك بغير وعى .. كل ما يذكره هو أنه استمر يندفع بجنوده حتى مواقع العدو .. ثم يذكر صوت انفجار بجواره .. ضمن بقية الانفجارات التى كانت تدوى حوله .

وقد عرف فيما بعد أنه أصيب بشظية أصابت ساعده ومزقت كتفه .. ولكنه يؤكد تأكيدا جازما أنه لم يشعر بها ساعتذاك .. وأنه لم يحس من اصابتها أى ألم .

ورحل فى قطار الجرحى الى مستشفى العجوزة .. وأدهشته أن يسمع ممن حوله أنه قام بأحد أعمال البطولة الخارقة .. وأنه كان شجاعا .

ولم يستطع بالطبع أن يكذبهم .

ماذا يقول لهم ؟ أيقول أن كل ما حدث هو أنه فقد نفسه ؟ . أيقول لهم أن أعمال البطولة .. يقدم عليها الإنسان بلاشعور .. وأنه يفعلها لأنه يجد نفسه لايستطيع أن يفعل سواها ؟

لا .. لا .. يجب أن لايخذلهم ويحرم نفسه من التقدير والاعجاب اللذين طالما حرم منهما فيما مضى .

وخرج من المستشفى .. وكل مايتوق اليه .. هو لقاؤها .. كان يريد أن تراه كما يراه الناس .. فى صورته الجديدة .. كان يريد أن يزيل من نفسها الصورة الضعيفة .. العاجزة .. الخائرة .. والتى يتوهمها عالقة بنفسها .

انه بحالته الجديدة .. يستطيع أن يقدم على خطبتها وأن يبوح لها بمشاعره .. وهو يجد فى نفسه الجرأة على ذلك .

وفى طريقه الى باب المستشفى التقى بأحد زملائه الذى أتى لزيارته ولم يكد يراه خارجا حتى هتف به :

— حمدا لله على سلامتك .. ان رأفت (سيخبط مشوارا على الفاضى) .. لقد لقيته الآن .. فى شارع فؤاد .. وأنبأنى أنه سيزورك .. على أية حال سيسر كثيرا لخروجك اليوم .. لأنه كان يود أن تحضر الاحتفال بعقد قران شقيقته فى نادى الضباط .. لقد دعوا عبد الوهاب لإحياء الليلة ، وهو يعلم أنك تحبه .

ولم يسمع من كل ماقال صاحبه .. سوى جملة (عقد قران شقيقته) .. لقد كانت السهم الذى مرق فى صدره ، والأنفجار الذى دوى فى أذنيه .

أبعد كل هذا .. يفلت الطير ؟ يالها من سخرية !

وانطلقت العربة به تعدو على غير هدى .. وعندما عاد فى النهاية الى البيت .. أكدوا له وقع المصاب بقولهم : ان رأفت أتى لدعوته .. لحضور قران شقيقته .. فى نادى الضباط .

وأقبل الليل .. وبنفس يائسة منهارة ، وذهن شارد ذاهل .. ارتدى ملابسه ليشيع أمله .. الى مثواه الأخير .

واجتاز بعربته كوبرى أبو العلا ، وهو لايكاد يبصر ما أمامه .. وانطلق فى شارع الزمالك ثم دلف من بوابة النادى ووضع العربة فى حشد العربات المصطفة .

وبدا النادى مضيئا متلألئا ، ونغمات الموسيقى تتردد فى أنحاء الحديقة ، وأحس من كل تلك المظاهر امعانا فى السخرية .. ووجدها تنعكس فى نفسه وكأنها النواح والعويل .

واجتاز مدخل النادى ، وعلى يسار المدخل أبصر الغرفة الصغيرة التى تحفظ فيها الكابات والعصى والمعاطف ، ومد يده فرفع الكاب من فوق رأسه وسلمها الى الحارس العجوز الواقف وراء الحاجز الخشبى ، ولم يتمالك نفسه من الدهشة عندما وجد الحارس هو نفسه الليثى بائع الكازوزة فى الكلية .

وسبقه العجوز الى التحية والترحيب ، وتسلم الكاب دون أن يعطه رقما يتعرف به عليها عند استردادها .. ولم يستطع هو أن يجزم بحقيقة ترحيب الرجل به .. اهو قد عرفه حقا وميزه .. منذ ان كان طالبا .. أما تراها مجرد مخادعة كعادته ، وأنه لايلبث أن يكتب صفته المميزة .. ويضعها فى الكاب .

على أية حال لم يملك الا أن يبادل الرجل ترحيبا بترحيب ، ووقف ينتصت مجاملا الى بعض أحاديثه عن أيام المدرسة ، واستطاع الرجل ببشاشته وافراطه فى الترحيب أن يقنعه بأنه يذكره تماما .

وخطا الى الداخل وكان المكان يعج بمن فيه .. فتسلل بين المدعوين واتخذ لنفسه ركنا قصيا .. وجلس يرقب المكان فى صمت وشرود وبنفسه احساس من يجلس فى سرادق عزاء ينتظر خروج النعش بين آونة وأخرى .

وفجأة بلغ مسامعه هتاف باسمه ، وأصابته من الصوت رجفة شديدة .. فقد ميز فيه – على طول الفراق – صوتها .

وتلفت فاذا بها تقف بجواره ترنو اليه بنظرات ملؤها اللهفة والشوق .

ونهض يحييها فى كلمات متحشرجة وهو يشعر بغصة فى حلقه ويسألها قائلا :

– كنت أظن أنى سألقاك فى ثوب العرس ؟

وأجابته فى دهشة :

– ثوب العرس .. لى أنا ؟

– أجل .. ألن يحتفل اليوم بعقد قرانك ؟

ولم تستطيع أن تكبت ضحكة انطلقت من شفتيها :

– .. قرانى أنا .. انه قران أختى سميحة .

– سميحة ! ولكنى أعلم أن قرانها قد عقد قبل أن أسافر فلسطين .

– لم تحدث قسمة فافترقا قبل الدخلة وقد خطبت ثانية واليوم عقد قرانها الثانى .

وأحس بأن الميت الذى أقبل لتشييع جنازته .. قد عاد الى الحياة .. وخيل اليه أنه يوشك من الفرحة .. أن يجن .

وسنحت الفرصة ثانية .. ولم يكن هناك سبيل للتردد والانتظار والخشية والرهبة .

وهمس بها وأنفاسه تتلاحق وكأنما يخشى أن تضيع الفرصة مرة أخرى :

– اسمعى يامديحة .. أريد أن أحدثك على حدة فى أمر هام يخص كلينا .

وتلفت حوله ثم جرّها من يدها قائلا :

– ما رأيك فى جولة قصيرة بعربتى على النيل ؟

– الآن ؟

– أجل .. هيا بنا ننسحب دون أن يحس بنا .

وتسللا من الصالة المزدحمة ، وقبل أن يجتازا الباب مدّ يده فتناول الكاب من الليثى وهو يحس أنه يوشك من فرط السعادة أن يطير .

وشيعه الليثى كعادته بألفاظ الترحيب والمعرفة ، وبعد لحظة كانت العربة تنطلق بالإثنين وقد سرى فى الجو صوت عذب يلاحقهما متباعدا خافتا رويدا :

(يا حبيبى هذه ليلة حبى   آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وفى الليل عاد الى بيته وهو يشعر بالسكينة تملأ قلبه والسعادة تفعم روحه .

وقذف بالكاب على المقعد وخلع ملابسه ، وهو يدندن بأغنيته المحبوبة .

وهمّ باطفاء النور عندما أبصر فى الكاب ورقة .

يا للرجل المخادع .. انه مازال يتبع نفس الوسيلة .. ترى ماذا كتب عنه ؟

لقد آن له أن يعرف صفته المميزة عند الرجل .

ومد أصابعه فالتقط الورقة وقرأ بها :

(الرجل الذى كان جبانا) .

وانطلقت منه ضحكة طروب وهتف لنفسه : الحمد لله على أنه (كان) .

★ ★ ★

نحيب فى الظلام

لم تكن مجنونة بمعنى الكلمة .. ولكن كان بها مظاهر شذوذ عجيبة .. تكاد تجعلها فى عداد المجانين لولا فرط رقتها وهدوئها وسكينتها .

لقيتها أول مرة فى دارها خلال زيارة لها بقصد استئجار الدار فى الصيف ، وكانت تقطنها مع أب عجوز وهن العظم منه فهو لايكاد يغادر مقعده .

وأحببت الدار لقدمها وفساحة حديقتها وكثافة أشجارها اذ كانت احدى الدور العتيقة الكبيرة الكائنة فى رمل الاسكندرية بالقرب من زيزينيا ، ولم يدع لى رخص ايجارها مجالا للتردد ، فسرعان ما استأجرتها فى فترة الصيف ونزلنا فى الدار ، وانتقلت الإبنة وأبوها الى جناح أشبه بالسلاملك قائم فى أقصى الحديقة منفصل عن الدار .. ومرت بنا الأيام ونحن نستمتع بالدار والحديقة والشاطىء الى أقصى حدود الاستمتاع حتى لانكاد نشعر بأصحاب الدار أو نبصر لهم وجها الا فى النادر القليل .. ولولا ذلك الطاهى العجوز الذى كنا نبصره حاملا

سلة الخضار فى ذهابه وأوبته لما أحسسنا أن هناك أحياء يقطنون بجوارنا على قيد خطوات منا .

ولقد كان انطواء الأب العجوز فى داره وقبوعه فى عقرها أمرا لايستثير دهشا ، فقد كان الرجل من فرط عجزه يكاد يكون مقعدا .. ولكن ما أثار عجبنا هو انطواء الابنة وامعانها فى التباعد والاختفاء .

وظننت بادىء الأمر أن انطواءها مرجعه الى انكبابها على العناية بأبيها ومداومتها على خدمته وقضاء حاجاته .. ولكنى وجدت هذا العذر – بفرض صحته – أمرا مبالغا فيه لأن الرجل لم يكن مريضا .. وكل ما به لم يكن يعدو عجز الشيخوخة .. وما كانت حالته بالتى تستدعى منها أن تهجر الدنيا والناس لتربط نفسها بجواره . وأكثر من هذا ، لقد تبين لى .. فى الأوقات المتباعدة التى ذهبت فيها لزيارة الرجل .. أن الإبنة لم تكن ملازمة له .. ولا كانت منكبة على العناية بأمره .. بل انى لم أحس لها وجودا .. أو أرى لها أثرا .. وكان الطاهى العجوز .. وهو وحده القائم على خدمته المتولى أمره .

كانت الفتاة ولاشك مخلوقة شاذة .. نفورة .. مستوحشة .. ولكن شذوذها لم يكن يعتينا الا بقدر ذلك العطف الذى أثاره فى نفوسنا عليها .. فلقد كنا نراها فى مظهرها مخلوقة حلوة رقيقة .. لطيفة المعشر مستحبة الرفقة .

أقول ان شذوذها .. لم يكن يعنينا فى كثير ولا قليل ، اذ كان شذوذا سلبيا .. لا ضرر منه على أحد .. فقد كنا لانكاد نحس به ولابها .. حتى حدث ذات ليلة .. وأنا أتقلب فى الفراش مستجلبا الكرى .. أن بلغ مسمعى صوت بكاء أشبه بالأنين .. يحمله نسيم الليل خافتا من الحديقة .

وأصابنى الصوت برجفة .. فهو بكاء مفاجىء فى وحشة الليل وسكونه .. والبيت كما قلت عتيق فسيح .. والحديقة متكاثفة الشجر .. شديدة الوحشة .. كل ذلك لايجعل النفس تتقبله بسهولة .. وبغير فزع .

وعدتُ أنصت .. مرهف السمع .. حاد الأذنين .. ولكن الصوت لم يتكرر .. حتى خلتنى واهما .. وخلته مواء قطة .

وفى الليلة التالية .. سمعت الصوت .. ولم أكن وحدى الذى سمعته .. بل سمعه نفر غيرى من الأهل الراقدين فى فراشهم .

وأقض الصوت مضجعى .. فقد أحسست منه بخوف مزدوج .. الأول خوفى منه كشىء مفزع .. والثانى خوفى من الأهل الذين سبق أن اعترضوا على سكنى فى مثل هذه الدار الفسيحة العتيقة الموحشة .. والذين سبق أن توجسوا خيفة من رخص ايجارها .. ولكنهم لم يملكوا سوى القبول أمام الحاحى .

وفى الليلة الثالثة لم آو الى فراشى .. فقد كرهت أن أسمع الصوت راقدا مستسلما وصممت على أن أعرف مبعثه .

وهبطت الى الحديقة المتسعة المتكاثفة أجول خلالها . وحمل الىّ النسيم رائحة أزهار الياسمين الهندى الذى تكاثف على أشجاره المكدسة فى الحديقة .

ولم يكن القمر قد اكتمل وكانت الحديقة تسبح من ضوئه الباهت فى شبه ضباب أغرقها فى غموض ووحشة وروعة .. وأحببت الحديقة فى منظرها السحرى العجيب .. وأمعنت فى السير والتجوال بلا رهبة ولا خشية .. حتى سمعت فجأة .. صوت النحيب .

وفى هذه المرة .. كان جليا واضحا محددا .. لا لبس فيه ولاغموض .

كيف لا .. وقد كان مبعثه على قيد خطوة منى .

وأصابتنى رجفة شديدة .. رغم انعدام عامل المفاجأة فى هذه المرة .. (وعلام المفاجأة .. وأنا ما خرجت الا لأسمعه) ورغم أن مصدره لم يكن مجهولا .. ولا غامضا لأنى لم أكد أسمع الصوت حتى أبصرت مصدره . ومع ذلك فقد ارتجفت رجفة شديدة .. بل انى لا أكاد أستعيد الموقف الى ذهنى لأكتبه .. حتى تصيبنى نفس الرجفة .. وأنا جالس أكتب على مكتبى .. بلا ظلمة ولا وحشة .. ولا أنين ولانحيب .

لقد أبصرت فى مصدر الصوت .. مخلوقا لفته الظلمة فجعلت منه مايشبه الشبح .. وكان يقبع على مقعد تحت احدى الخمائل وقد انحنى ظهره واتكأ بمرفقيه على ركبتيه ودفن وجهه فى راحتيه . وأخذ يهتز على نبرات النحيب .

أنا مخلوق عصى الدموع جاف المآقى .. لا تدر مقلتى عبراتها بسهولة حتى وأنا واقف أرقب الموتى يهبطون بهم الى القبور .. ومع ذلك لم أكد أبصر الجسد المهتز فى الظلمة ، وأميز صاحبه .. أو على الأصح صاحبته .. حتى تجمعت الدموع فى مآقى .. وانسابت برغمى .. وبرغم أنى لم أعرف علام تبكى المخلوقة الشاذة المنطوية فى الظلمات .

لقد كنت اعطف دائما عليها .. وكنت فى قرارة نفسى أرجع شذوذها الى شىء فى باطنها .. أو فى قلبها .. قد أغلقت عليه صدرها .. وكبتته فى حناياتها .

ووقفت برهة صامتا .. أفكر بسرعة فيما يجب أن أفعل .. ولم أجد خيرا من أن أنسحب فى هدوء .. دون أن أجعلها تشعر بى .. وبأنى أبصرتها وهى تبكى .

وهممت بالعودة ، ولكن قدمى ارتطمت بحصاة .. جعلتها تتلفت نحوى دهشة فزعة .

ولم أملك الا أن ألقى عليها التحية فى رقة وعطف .

ولم تجب لأول وهلة .. وبدت كأنها لاتميزنى ، وكان ذهنها لايعى شيئا مما حوله .. ووقفت أرقب وجهها فى الضوء الباهت وهو يحملق فىّ جزعا مرتابا .

وبدا وجهها عجيبا .. بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وأهدابها السوداء الطويلة وعينيها الخضراوين تبرقان من وراء الأهداب ، وأنفها الأشم المستقيم وشفتيها الرقيقتين .

ولم تطل الحملقة حتى أبصرتها تنهض نافرة فزعة وتشيح بوجهها ثم تولى هاربة منطلقة نحو الدار . ولم اكن أملك ازاء ادبارها وفرارها أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، رغم أنى كنت أود لو أستطيع محادثتها والترفيه عن نفسها وازاحة بعض أحزانها . ولما هممت بالعودة أبصرت على المقعد الذى كانت تجلس عليه حقيبة يد جلدية صغيرة مفتوحة وبجوارها قد تناثرت بضعة أشياء لم أستطع تمييزها لأول وهلة .

وترددت برهة فيما أفعله بالحقيبة والحاجيات .. أأتركها على حالها حتى تعود لأخذها .. أم أحملها وأذهب بها اليها ؟

وخشيت ان أنا تركتها أن تعبث بها يد قبل أن تعود لأخذها ، فصممت على أن أجمعها فى الحقيبة وأسلمها لها . ومددت يدى أجمع

الأشياء من فوق المقعد فأدهشني أن أجدها خليطا عجيبا متناقضا لايكاد يربطها رابط .

كان أول ما عثرت عليه منديل وفرشاة أسنان ، ثم قطعة قديمة من الشيكولاته ملفوفة فى ورقة بيضاء .. وقلم رخيص من الحبر الجاف ، وظرف صغير به بعض زهور البنفسج الجافة ، وماكينة للحلاقة ، وجلدة ساعة قديمة بالية ، واطار نظارة بلا زجاج ، ومنديل مستعمل لم تمتد اليه يد النظافة . وبجوار كل هذا مظروف به أوراق مطوية .

ووضعت المجموعة العجيبة المتناقضة فى الحقيبة وسرت الى بيت الفتاة .. ولكنى وجدته مغلق الأبواب والنوافذ ولم أجد به أثرا لضوء .

ولم أجد من الحكمة أن أطرق الباب وأثير ضجة فى الليل وصممت على أن أعود بالحقيبة اليها فى الصباح الباكر .

وقبل أن يستيقظ مخلوق فى الدار كنت قد ارتديت ملابسى وحملت الحقيبة وسرت فى الحديقة متجها الى بيت الفتاة ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى أبصرتها تنطلق فى عجلة تجاه الخميلة .

وصحت بها فتلفتت الىّ .. ولوّحت بيدى بالحقيبة فاندفعت نحوى وجذبت الحقيبة فى لهفة كأنها قد استردت حياتها .

وقالت وهى تلهث :

– حمدا لله .. لقد كنت أخشى عليها من الضياع .

وأجبت مازحا :

– كان يجب ألا تخشى شيئا من ذلك .. فليس بالحقيبة شيء ثمين يغرى بسرقتها .. فلا أظن محتوياتها بما فى ذلك قطعة الشيكولاته القديمة وفرشة الأسنان يزيد على نصف ريال .

ونظرت الىّ نظرة طويلة ثم انطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة خافتة وأجابت :

– ان ما بها لايقدر بثمن .. انها روحى .. أنها كل شىء فى حياتى .

وهززت رأسى فى عجب ثم هممت بالعودة عندما صاحت بى فجأة :

– هل قرأت الخطاب ؟

– لم أقرأ شيئا .. لقد جمعت بالحقيبة كل ما كان على المقعد وأغلقتها .. وأعدتها اليك كما هى .. ولكنى أتمنى الآن لو استطعت قراءته .

– لـم ؟

– لأنى أود أن أعرف عنك شيئا .. أود أن أعرف ما بك .. لعلى أستطيع أن أحمل عنك بعض حزنك .. لابد للإنسان من انسان آخر يتحدث معه ويفضى اليه بهمومه .. ليس هناك أقتل للمرء من ذلك الانطواء وتلك الوحدة .. قد تكونين لم تجدى من يفهمك لكى تحدثيه عن نفسك ولكنى واثق من أنى أستطيع فهمك وتقدير مشاعرك .. حدثينى عما بك ولاتخشى شيئا .

وأطرقت الفتاة برأسها برهة ثم جذبتنى نحو الخميلة .. ودون أن تنبس ببنت شفة مدت يدها الى الحقيبة فاخرجت الظرف الذى يحوى الرسالة ثم دفعتها الىّ قائلة : اقرأ .

وأمسكت بالرسالة وفضضتها وقرأت ما يلى :

(عزيزتى ..

من يصدق أنى قد بت أغار من نفسى ؟

من يصدق أنى بت أكره ذلك الشىء فى نفسى الذى طالما تمنيته وتقت اليه .. والذى كنت أهدف الى الوصول اليه لأجعل منه مثلى الأعلى ؟

من يصدق أنى بت أكره فى نفسى الكاتب العبقرى النابغة .. الذى يقدره الناس ويبجلونه ويعجبون به ؟

انى أغار منه وأبغضه .. لأنك تحبينه ولاتحبيننى أنا .

لا تقولى انى وهو واحد .. وانى أنا هو ، هو أنا .. لأنى واثق لك تحبينه هو .

كيف لا وقد أحببتك وحاولت التقرب اليك .. كأنا ، بشخصى لكائن الحي .. المتحرك المنظور الملموس بلا نبوغ ولا عبقرية ، ولا كتابة ولا تأليف .. ولا وهم ولا خيال .. فلم تعيرينى أدنى التفات .. وأعرضت عنى اعراض المهمل المنكر .

(أنا) لم أفز منك بغير الأهمال والإعراض .

فماذا فعلت عندما قرأت لى .. وعرفت أننى كاتب كتبى وصاحب آرائى .. لقد أقبلت علىّ فى لهفة وشوق .. وانقلب أعراضك اقبالا .. واهمالك اهتماما ما بعده اهتمام .

وفاز منك (الكاتب) فى شخصى بما لم أفز به أنا .. وبت تقدسينني وتتلهفين عليّ .

وكان يجب عليّ أن أرضى باقبالك ، وأن أستغل لهفتك على (الكاتب) فى نفسي فأتمتع (أنا) بها ، ولكننى وجدتني أكره اعجابك بكتابتى .. أكره قولك لى : (ان كتابتك رائعة) .. (انى أعبد كتابتك) .. كرهت قولك هذا لأننى تمنيت أن يكون (انك رائع) .. (انى أعبدك) .

كرهت قولك لى .. (لا تكف عن الكتابة أرجوك . انى أريد كتبك دائما ، أكتب .. أكتب .. انى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير القراءة لك) .

وكنت أود لو قلت لي : (انى أريدك دائما .. ابق معى لأنى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير لقائك) .

كنت أتمنى أن تحبينى أنا .. كآدمى بسيط .. بتفاهاتى .. وسخافتى .. ومادياتى .. بدل أن تحبى فى ذلك الوهم من النبوغ والعبقرية .. والسمو .. كنت أود أن تحبينى كما أحببتك .. وكما يحب كل انسان انسانا آخر .

كنت أود أن تتلهفى على ضمى كما أتلهف على ضمك .. وأن تتوقى الى تقبيلى كما أتوق الى تقبيلك .. بدل هذا التلهف منك على كتابتى وآرائى وأفكارى .

انى بشر أولا .. ولقد وددت أن تحبينى كثيرا .

وحاولت التقرّب اليك كبشر .. ولكنك صممت على مبدئك .. وعلى أن تسمى – كما قلت – بنفسينا .. وأن يظل كل ما بيننا صلة روحية ذهنية .

فلما أصررت على مطلبى وعلى طريقتى فى حبى هجرتينى . ونأيت عنى .. وأرسلت الىّ تودعيننى قائلة :

– أكتب .. أكتب .. ان فى كتابتك عزائى .. وثق أنك فى ذهنى دائما سأقدسك مادامت بى قدرة على التقديس .

وحاولت عبثا أن ألقاك .. حتى يئست .. واستقر بى المقام بعد هجرك .. وأنا محطم منهار ولم يك أمامى سوى شىء واحد .. هو أنى أنفذ مطلبك .. فأكتب .. وأكتب ..

وأقبلت على الكتابة باندفاع المجنون .. لقد كنت أحس أن فى كل كلمة اكتبها وكل سطر أخطه متعة لك .. وكتبت الكتاب تلو الكتاب .. واندفعت أرقى سلم المجد – دون قصد منى – بخطى حثيثات سراع .. حتى أحسست أنى قد استنفذت كل قواى .. وأنى بلغت قمة المجد .. ونهاية العمر .

انى متعب منهك .. ولقد أمرنى الأطباء بأن أكف عن الكتابة .. ولكننى لن أكف – من أجلك – حتى أكف عن الحياة .

لن أكف حتى أكتب قصتى الأخيرة ، فانى أكتبها لك وحدك .. ولابد أن أتمها .. لقد انتهيت منها أخيرا وأنا أشعر أنى بت من النهاية قاب قوسين أو أدنى .

وليس أمامى سوى أن أكتب لك هذه الرسالة لأودعك فيها .. ولأقول لك : انى كتبت وكتبت لا لمال .. ولا لشهرة ولا .. ولا .. ولكن لأجلك أنت .. أنت وحدك .. عابدة كتابتى .. ومقدسة نبوغى وعبقريتى .

ليتك تحبين فيّ الإنسان المتواضع .. الطيب الهادىء . كما أحببت الكاتب النابغة العبقرى .. ليتك تحبيننى .. مرة واحدة .. كبشر .

ليتك تحبيننى (أنا) . (المخلص)

ووضعت الرسالة جانبا ونظرت الى الفتاة في دهشة بالغة ..

– وهل ذهب حقا ؟

– أجل لقد ذهب .. ليته كان يعرف .. ليته كان يعرف أننى أحببته كبشر .. أكثر مائة مرة منه ككاتب .. لقد كنت أتوق الى ضمه وتقبيله والى أن أتحسس شعره بيدى .. ولكنى كنت أجد حبه كبشر .. حبا يائسا لا أمل فيه لأنى كنت مقيدة الى سخلوق آخر .. ولم تكن هناك فرصة للفكاك . كنت احبه كبشر ..ولكنى لم أجد هناك فائدة من حبه ..فصممت على أن أحبه ككاتب .. فقد خيل الىّ أن هذا شيء مستطاع يمكن أن يدوم العمر .. وصممت على أن أجعل الصلة بيننا صلة روحية ذهنية ما دامت الصلة الجسدية قد استعصت وتعذرت .. وقلت لنفسى انها ستكون صلة أبقى على الزمن وأكثر دواما .

ونأيت بنفسى عنه .. وظللت اتعزى عنه بكتبه وأحيا معه نين السطور والكلمات .. فى دنيا من الوهم .. وعالم من الخيال .. حتى قرأت قصته الأخيرة .. التى أفني فيها نفسه .. ثم وصلتنى رسالته .. وعلمت بعد هذا أنه ذهب .

وهنا أحسست أن صبرى قد عيل واحتمالى قد نفذ .. وأنه لم يعد فى طاقتى الاحتمال .. ولا فى استطاعتى أن أحيا كبشر مع رجل غيره .

أجل .. اننى لم أحس بحاجتى اليه .. كبشر ، ألا بعد أن ذهب . وانطويت على نفسى .. متلمسة العزاء عنه .. فى بقاياه التافهة .. فيما كان يسميه ماديات بشرية .. انه لم يعد يمتعنى فى الحياة شىء .. أكثر من أن أتلمس فرشاة أسنانه .. أو أتحسس جلدة ساعته .. أو أمسك بقطعة من الشيكولاته كان قد قضم منها بعضها وأعطانى النصف الآخر فاحتفظت به .

لقد حرمت على نفسى أن أحيا معه .. وكنت أقنعها بالصلة الروحية .. عندما كان حيا .. يلمس .. ويضم .. فلما ذهب .. أحسست بعمرى قد ذهب هباء .. وضاع سدى .. ولم أعد أستطيع أن أحرم نفسى من أن أضم كل ما مسته يداه أو لفحته أنفاسه .

★ ★ ★

موعد في الليل

هذه قصة مزحة لم تعد في أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفكه والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونفخت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هى أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها فى بادىء الأمر .

رأيت الفتى – بطل المزحة أو بطل القصة – أول مرة فى ذلك النادى الذى اعتدت أن أقضى به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصر بين وجوه الحسان اللاتى تناثرن هنا وهناك .. وكان يجلس فى ركن من أركان الصالة الفسيحة المزدحمة وقد دفن رأسه فى كتاب بيده لايحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب الى الدمامة .. بوجهه الأصفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبتلك وبتلك الأسنان الصفراء البارزة المدببة . وذلك المنظار السميك الذى يكاد يلمس صفحات الكتاب الذى فى يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك فى نفس المكان وفى نفس

الوضع لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولايرفع رأسه عن صفحات الكتاب .. وكنت أحس له فى نفسى شيئا من النفور .. وأغلب ظنى أن هذا هو الشعور الذى كان فى نفس كل من يراه .. ولكن حدث ذات يوم أننى وجدت نفسى مضطرا الى الجلوس اليه ومحادثته .. فقد كانت القاعة خلوا الا منه ومنى .. ووجدته يبتسم لى ابتسامة خفيفة فاضطررت الى مجاذبته أطراف الحديث .. وأعجبنى حديث الفتى ، فقد كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محببة بينى وبينه .. والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل الاختلاف .. فقد كان رقيقا شاعرى النفس ، حلو الحديث ، وان كان أكثر ما يعينه هو فرط حيائه لا تكاد تتعدى تلك الصفحات من مئات الكتب التى يغرق فيها رأسه .

وبدأ أصدقائى الخبثاء يتخذون من الفتى ملهاة لهم ، ومسلاة يتندرون به فيما بينهم .. وانتهى بهم الأمر أن يدبروا مؤامراتهم الماجنة .. والتى لم أعلم بحقيقتها الا فيما بعد .. والا لوضعت حدا لمزحتهم الشائكة وخاصة مع مثل هذا الفتى الحى .. والذى ما أظنه قد جلس فى حياته الى امرأة قط .. أراد الأشقياء أن يعبثوا بالفتى فاتفقوا مع فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تصف فيه مبلغ اعجابها به ولهفتها عليه .. وتقول (أن حبها قد بدأ منذ رأته جالسا فى صمته ووجدته بعيدا عن الناس ولهوهم ، ومجونهم .. وأنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بسيماء النبل البادية عليه) ! ثم ينتهى الخطاب بتحديد لقاء فى الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة فى ملتقى العشاق باحدى الضواحى النائية .. ثم تضيف الى ذلك ملحوظة جاء فيها : (يمكنك

معرفتى بعينى السوداوين الحزينتين وبمعطفى الأحمر ووردة بيضاء سأمسك بها فى يدى) .

ويستطيع المرء أن يدرك وقع مثل هذا الخطاب فى نفس الفتى الذى يذوب خجلا وحياء .. والذى ما خطر له أن فتاة يمكن أن تعشقه ، بل الذى لايذكر أن فتاة نظرت اليه نظرتين متتاليتين .

ويمسك الفتى بالخطاب ويخلع منظاره ليمسحه جيدا .. ثم يأخذ فى تلاوته مثنى وثلاث ورباع ، والأشقياء على مقربة منه يسترقون النظر اليه ويضعون أكفهم على أفواههم خشية أن تفلت منها الضحكات التى تعتمل فى صدورهم ! ثم يطبق الفتى الخطاب فى رفق وعناية ويضعه فى جيبه ثم يروح فى شبه ذهول .. ولاشك أن الفتى قد قضى يومه قلقا حائرا فقد لقيته وفى عينيه نظرات غريبة ثم انتحى ناحية بعيدة ، ودفع الىّ بالخطاب ووجهه يصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منى قراءته ثم راح يرمقنى فى صمت فلما انتهيت من قراءته سألنى فى صوت خجول :

– يخيل الىّ أنى أعرفها .. وأحس بلهفة الى الذهاب للقائها .. ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة الكافية .

فقلت :

– الأمر لايحتاج الى جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من حياء سيذوب بمجرد لقائك اياها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن فى الأمر مزحة مدبرة .. والا لأجبته بغير ذلك .. ولاطلعته على الحقيقة حتى لا أتركه ألعوبة بين أيدى هؤلاء

الماجنين العابثين .. ولكننى كنت أظن مثله أن الأمر لايعدو الحقيقة فقد كان الخطاب مكتوبا بأسلوب متزن معقول لايكاد يميز المرء فيه هزلا أو مزاحا حتى جاء يوم الجمعة .. فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبروا المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من الفتى واخراجه من صمته ووقاره .

وشعرت بالأسى يتملكنى فأسرعت الى داره لأنبئه بحقيقة الأمر .. ولكن ما أن وقع بصرى عليه حتى وجدته قد تأنق وتزين والعطر يفوح منه ورأيت وردة حمراء تتربع على صدره .. ولمست الأمل يترقوق فى وجهه .. كل ذلك جعلنى أجزع من ذكر الحقيقة التى ستهدم تلك القصور الشامخة التى شادها الفتى فى رأسه فألقيت اليه ببضع كلمات تافهة وغادرته بعد ان وعدته بالعودة اليه بعد أن ينتهى من موعده .

وعدت اليه فى العاشرة .. فقد أحسست أن من واجبى أن أرفه عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل .. فقد تخيلته يحملق بمنظاره ومنقاره فى كل امرأة تمر به دون أن تعيره احداهن أدنى التفاتة .. ولم يعد الفتى الى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد أقبل حزينا ملتاعا وقد بدا عليه الإعياء .. فألقى بنفسه على مقعد وقال كمن يحدث نفسه :

- انها لم تأت بعد .

- ربما قد عاقها مرض .. أو حدث لها طارىء منعها من الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أجيبه هذه الإجابة التى أعادت الأمل الى نفسه .. وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم .. فقد أجاب :

– نعم .. لابد أن يكون هناك ما منعها .. ولابد أنها ستكتب الىّ مرة أخرى لتشرح ما حدث .. كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه أو أصابها سوء .

فلاشك أنها كانت تنوى الحضور والا لما كتبت تقول ذلك .

وفى الواقع .. كان يجب علىّ أن أفضى اليه بالحقيقة كلها فى ذلك الوقت ، ولكننى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم أرد أن أحمل الفتى خيبة فوق خيبة .. وفضلت أن أترك للظروف تدبير أمره وللزمن أن يبرئه مما به ، وينسيه ذلك الخطاب وصاحبته .

ولشد ما أخطأت فى ظنى .. فلم تزد الأيام الفتى الا استعارا .. لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب الى مكان اللقاء فلا يعود الا فى منتصف الليل .

وكان علىّ أن أفعل شيئا وقد أوشك الفتى على الجنون ، ورأيت من العبث أن أخبره أن المسأله كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير على المرء أن ينتزع الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يقنعه أنها كائن لا وجود له الا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى خدع به .. وعلى ذلك فلم يكن أمامى الا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلا .. وأن أحوّلها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة .. فأجعلها تلقاه حتى يهدأ باله وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمه ومهارة .. وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديق اشتهر

بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتنات الساحرات بين الكئوس والضحكات .. فذهبت اليه وقصصت عليه القصة ، وسألته لو أمكن أن يتفق مع احدى صاحباته على أن تلقى الفتى مرة أو مرتين فتتلطف معه بعض الشيء ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأنها سترحل بعيداً لعذر تنتحله .. وأخبرته أن من الخير ألا تكون الفتاة مفرطة في الحسن حتى يسهل على الفتى أن ينساها بعد ذلك .

وفي اليوم التالي أخبرني صاحبي أنه استطاع أن يقنع احداهن بلقاء الفتى وهي – وان كانت بارعة الحسن – الا أنها أيضا خبيرة بالنفوس داهية ماكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى الى نفسه من اللقاء الأول وتجعله يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

★ ★ ★

وكنت جالسا مع الفتى عندما جاء الخطاب الثاني .. وأبصرت به يفضه بيد ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد الدم الى وجهه .. ثم رأيته يمد يده اليّ بالخطاب ويقول في صوت هامس :

– ألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن بي من حاجة الى قراءته فقد كنت أعلم ما به .

ولكني تظاهرت بالقراءة .. لقد كان بالخطاب اعتذار بالمرض وموعد للقاء في نفس المكان وفي نفس الساعة .. وذهب الفتى للموعد وانتظرت أن يؤوب سريعا ، ولكن غيبته طالت حتى خشيت أن يكون

قد مسه سوء أو يكون قد ألقى بنفسه فى النهر ومات منتحرا .. ولقيته فى اليوم التالى فأقبل علىّ باسما متهللا .. وبدأ يحدثنى عن لقاء الأمس فوصف لى كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارغة ومعطفها الأحمر ووردتها البيضاء .. تماما كما حدثته فى خطابها لاتكاد تختلف فى شيء سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حزينتين بل كانتا تبرقان بالمرح وتشعان بالسرور .

— انها نشوة أثارتها فى نفسى .. ما ظننت قبل أن أراها أن من الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت .. لقد أقبلت علىّ هاشة باشة كأن بيننا قديم صحبة .. والواقع أننى أحسست أن روحينا قد التقيتا قبل الأمس مئات المرات ! وأمسكت بيدها وانتحينا ناحية هادئة على الشاطيء وطلبت منى الفتاة أن أحدثها عن نفسى ، فرأيت لسانى ينطلق فى الحديث ويروى لها كل ماوعته الذاكرة من الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين فى نشوة .. وأنا أحدثها بلسانى وهى تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

— سنلتقى اليوم مرة أخرى .. وقد تركت لى عنوانها حتى أستطيع الاتصال بها اذا ألمّ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصوَّر مدى ما أصابنى من الدهشة والذهول عندما سمعت حديث الفتى .. وشعرت أن المشكلة تزداد تعقدا وأن الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتزيد الفتي لهيبا بدلا من أن تطفيء لهيبه !

ترى كيف تستطيع أن تخلص نفسها منه بعد ذلك ؟ .. وذهبت الى صاحب الفتاة وأنا حانق ثائر .. فلقينى بابتسامة ساخرة وقال :

– أهذا هو صاحبك الذى تخشى عليه ؟ كان خيرا لك أن تخشى منه لا عليه .. اياك أن تعود لاقتراض صاحباتى لأصدقائك فانهم محتالون لايردون القرض .

وتملكتنى الدهشة عندما سمعت أن الفتاة التى ذهبت لتمثل دورها القصير لم تجد الفتى قبيحا كما تخيلته بل وجدته رقيقا مهذبا ، واستطاع أن يأسرها بسحر حديثه وعذب صوته .. حتى لقد أقسمت أنها تستطيع أن تستمع اليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فاذا بالمزحة قد انقلبت فصارت غراما فياضا وهوى جارفا ، وكاد الأمر ينتهى بها فتصبح زواجا سعيدا لولا أن حدث مالم أكن أتوقع حدوثه قط .

فى ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا المزحة فى أول الأمر . ولا أدرى أى شيطان دفع الخبيث الى أن يفضى الى الفتى بقصة الخطاب من أولها الى آخرها .. وأصيب الفتى بصدمة أخرى عنيفة قاسية أفقدته رشده .. فقد رأى أنه لايعدو أن يكون فى كل هذه الأحلام العذبة ألعوبة وسخرية .. وسحق قلبه أن يكون كل ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل ماجن .

ولقينى الفتى بوجه متجهم عابث ، وهيكل محطم مهدم ، اعترفت له بكل ما حدث .. ولكنى أخبرته أن شيئا واحدا مما حدث لم يكن به أى هزل أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن أفهمه حقيقة ما حدث ، ولكنه أشاح عنى بوجهه وانصرف كأنه شبح أو خيال ، وشعرت أن رأسى يكاد أن ينفجر .. وخشيت على الفتى أن يودى به وهم كاذب .. ولم أجد خيرا من أن أسرع الى الفتاة فأنبئها

بما حدث حتى تسرع اليه فتقنعه بأن حبها له حقيقة لا خداع .. ولقيت الفتاة وهرعت واياها الى دار الفتى واقتحمنا حجرته لننقذه من شر أوهامه .. ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا .. فقد أنقذ الفتى نفسه بنفسه .. لقد انتحر المسكين ، وتركت الفتاة ترتمى باكية أمام الفتى المسجى على فراشه وغادرت الدار .. فقد أحسست أننى أوشك على الاختناق .

يا للسخرية ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته ستنتهى بمثل ما انتهت اليه .. أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟

★ ★ ★

ليلة الثأر

سار المحراث يشق الأرض يقلب عاليها أسفلها وأسفلها عاليها وقد دفن حدّه اللامع في باطنها . وتحركت البهيمتان يتبعهما جسد طويل متين البنيان ، وقد أمسك بيساره خشبة المحراث ، وبيمناه عصا طويلة يستحث بها البهيمتين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك فى احدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد شمله ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدت ذراتها البيضاء معلقة فى الجو ساكنة راكدة لايكاد المرء يتثاءب ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف .. وظهرت قطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم الداكنة الخضرة .. وتوقفت احدى البهيمتين ترعى بقايا خضرة الأرض .. فتصاعد من ورائها صوت ينهرها : (حا) ، وكان الصوت صوتا نسائيا على ما فيه من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة .. أجل .. كان الجسد الطويل الفارع ، المتين البنيان ، هو جسد أم بهانة .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقي من أرضها الذى لم يتم زرعه بعد .. لم يكن المرأة لتفترق عن الرجل في شيء .. وأعنى بالرجل .. الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة .. المهاب الجانب .. الموفور الكرامة .. وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لايعينها فى ذلك سوى ابنتها بهانة ، وعامل أو عاملان تستأجرهما فى وقت تغيير الزرع .. واستمرت المرأة فى تقليب الأرض جيئة وذهابا بينما أخذ ذهنها يكد فى التدبير .. ماذا فعلت ؟ . وماذا ستفعل ؟ . هل تبيع فدان البرسيم – الفجل – أم تتمهل قليلا ؟ .. ثلاثة جنيهات للقيراط ليست بالسعر الذى تطمع فيه .. ولكنها تخشى ان استمرت فى الرفض أن تضيع الفرصة ويبور البرسيم .. ثم ان السيد الساقط خير من غيره .. فهو مضمون في الدفع .. سريع فى حمل البرسيم لأنه متعهد الجيش ، وسيخلى لها الأرض فى يوم أو يومين . فتستطيع أن تنتفع بزراعتها مرة أو مرتين خضروات .. ثم قفز ذهنها قفزة سريعة الى محصول الذرة .. لقد كان الإنتاج وفيرا فى هذا العام .. وهى تأمل أن تسدد منه المال .. وتبتاع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة غاضبة محذّرة : (يا بهانة حوّلى المياه .. لقد كاد الحوض أن يغرق) وعلى مسافة قريبة بدت بهانة وقد انحنت تضرب الأرض بفأسها وتحوّل المياه عن حوض البرسيم القريب .. الى حوض آخر .. ثم انتصبت واقفة فبدا جسدها استواء وامتلاء .. وبرز صدرها بروزا طبيعيا غير متكلف ولا مصطنع وسألتها أمها :

– هل أحضرت تقاوى اللفت لكى نبذره على الفحل ؟

– أجل .. لقد وضعتها بجوار الجميزة .

وتحوّل بصر المرأة الى الجميزة القائمة على قارعة الطريق فرأت بجوارها رجلا يقتطع بفأسه من كوم السماد القائم أسفل الشجرة ، وعاد ذهن المرأة فى الشرود مرة أخرى .. وبدا على وجهها تجهم شديد .. لشد ما كان يسوءها من ابنتها هذا التهافت منها على محمود ابن الشيخ معاطى .. ماذا حدا بالفتاة الى أن تخص هذا الفتى وحده دون سائر خلق الله بعطفها أو حبها .. هذا المخلوق الذى كانت تحس له المرأة حقدا وضغينة لم تستطع الأيام فى مرّها أن تمحوها أو تخفف من حدّتها .. لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى أفسدت عليها حياتها ، وسلبتها الراحة والنعيم .. وانطلق ذهنها يعدو فى ضروب الماضى البعيد .. المظلم الأرجاء .. الشبيه بذلك الضباب الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صوره الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه ومن حولها الأرض الطيبة .. وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أفدنتهما الثلاثة ضيعة واسعة .. وأن بيتهما الطينى قصر شامخ .. وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تفيض بها نفسها ؟ وتذكرت كيف وضعت بهانة وكيف ألم بنفسها حزن .. خشية أن يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولدا .. ولكن زوجها لم يحزن ولم يكتئب .. على النقيض ، لقد كانت فرحته بالطفلة لاتوصف .. وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء .. ومنحتها هناء فوق هناء .. وكيف كان أبوها يتفاءل بها فلا يفتح عينيه

فى الصباح الا اذا أحضرتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره .. واستمرت قانعة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب الشقاء تعكر صفو حياتها .. انها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب المعتمة حين أقبل عليها زوجها يقول لها فى غير اكتراث :

– هل سمعت ما فعله ذلك الشيخ المخرّف ؟

– من ؟

– الشيخ معاطى !

– الشيخ معاطى رجل مخرّف ! .. حرام عليك .. انه من أفاضل الناس .

– لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحى من مخابيلهم .

– ولم ؟ ماذا حدث منه ؟

– لقد تزوّج .

وبهتت المرأة بعض الشىء .. ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس الرجل وقوة ايمانه جعلها تدافع عنه لتلتمس له المعاذير فقالت :

– وما العيب فى أن يتزوج ؟ .. لقد مضى عامان على وفاة زوجته والرجل ما زال – رغم بلوغه الخمسين – فى عنفوانه وفى أوج صحته .. فلم نحرم عليه ما أحله الله ؟

– هل تدرين من تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

— وأنى لى أن أعرف !

— تزوج سنية الغازية .

وبدرت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر — وهى مبهوتة — سنية الغازية ! قل شيئا غير هذا ! ان الشيخ معاطى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم .. قد أقبل على مثل هذا العمل الجنونى حتى رأت — الغازية — بعينى تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة .. ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه الى التردى الى تلك الهاوية ؟ .. أمثله يتزوج المرأة الملوَّثة العاهرة ؟ .. هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق الا رنين الصاجات بين يديها .. وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والايجار ، ولم يحاول أن يستمع لنصح ناصح .. بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه .. وانطوى مع امراته فى عقر داره .. حتى مرّ بهما عام أو ما يقرب العام .. فوضعت له ابنه محمود .. وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهرا طويلا .. لم ينعم الله عليه بالبنين .

وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلات بينهم وبينه ، بعد مارأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن الفسق والفجور وكان أول من وصله .. هى وزوجها .. أجل .. لقد عادت الصلة بين الجارين الى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة .. وبدأت هى تقبل على —

الغازية – وتتخذ منها صديقة لها .. ومرّت الأيام فاذا بها تلحظ تغيرا ملموسا فى سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد منم ذلك الحنان والإقبال .. وساء خلقه .. ولاحت لها فى الجو بوادر عاصفة تكاد تودى بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بذيلها ، وتنصب الحبال حول زوجها .. فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية .. وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختارا لعلاقتهما الآثمة .. ولم تكتف الغازية بصيد واحد .. وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال .. فاذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين ابراهيم شيخ الخفراء ، وبين عبد الصبور ابن العمده . وكبتت المرأة أحزانها بين الضلوع وقالت لنفسها : نوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ما تزول وفترة جموح سرعان ما يعود بعدها الى سابق هدوئه وسكينته ، وحاولت جهدها أن تخفى يرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود الى حظيرتها .. وأخيرا عاد الى ظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال .. ذلك لقد كانت عودته فى حلكة الليل محمولا على الأعناق .. مضرجا بدمائه لانفس فيه ولاحراك .

تذكرت كيف دّوى فى سكون الليل صوت الرصاص .. وهى جالسة تنتظر عودته كما تعوّدت دائما أن تنتظره ، وقد وضعت ابنتها فى حجرها .. وكانت ترفع أكفها من آن لآخر الى السماء تدعو الله أن ينقذه من تلك الحية الآثمة .. وقد عصفت بنفسها الغيرة والحزن وقد أفزعها دوى الرصاص .. ولكن فزعها لم يكن أكثر من فزع البهيمتين المستلقيتين أمامها عندما فتحتا عينيهما لحظة .. ثم عادتا الى

سباتهما .. كما عادت هي الى الاستغراق فى التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب فى الخارج .. وأصوات مختلفة تتصايح وتتهامس .. ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التى تتراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه .. ودوّت منها صيحة ذعر وارتمت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رمق ففتح عينيه واستغفرها ثم اسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك .. فلم يكشف القاتل .. اذا لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هى تعرف القاتل .. وتعرف يقينا أنه لم يكن سوى ابراهيم شيخ الخفراء .. وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتله عندما أبصره يجلس واياها تحت الجميزة .. فاختفى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته فى صدره فأرداه قتيلا .. ولكن أى فائدة من أن تدلهم على القاتل .. وهى لاتعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاجرة ؟ . أى فائدة تعود عليها وهى لن تفعل أكثر من أن تضيف الى ضحايا المرأة ضحية أخرى.. ثم تظل هى بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟ لا .. لا .. ان ابراهيم شيخ الخفراء – رغم أنه قاتل – فانه فى نظرها لايعدو أن يكون ضحية بريئة .. أما القاتل يجب أن تثأر لنفسها منه فهى المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام .. وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطما مهدما .. لايعزيه في الحياة سوى ابنه الطفل .. ومرّت السنوات بها بعد ذلك وجمرة الثأر تتأرجح فى نفسها .. وسوس الانتقام ينخر فى صدرها فيقض مضجعها .. ويثقل كاهلها ويقوض ظهرها .. وقاومت الزمن والأحداث .. فضاعفت فدادينها الثلاث .. وأطلق عليها أهل القرية اسم

(المرأة الرجل) .. وكبرت ابنتها وأضحت فتاة مكتملة ناضجة .. ونما ابن الغازية وأضحى شابا فارع الطول .

ودفع القدر كلا منهما فى طريق الآخر فاذا بكل منهما يقع فى هوى صاحبه ، وكانت تحس للفتى الحقد الذى كانت تضمره لأمه .. وكانت رغبتها المكبوتة فى الانتقام من الأم تدفعها الى أن تحوّل انتقامها اليه .. فكانت تحاول دائما أن تبعد بينه وبين ابنتها .. وبدأت تقرّب اليها الفتى الوحيد الذى يستطيع أن يقف ندا له وينتزعها منه .. وهو عليوة ابن ابراهيم شيخ الخفراء .. لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر .. ابن القاتل فى عرف القانون .. وابن القاتلة فى عرفها .. فهذه خير وسيلة للثأر لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فبددت الضباب وبدت الخضرة ممتدة على مدى البصر .. وانتهت المرأة من حرث قطعة الأرض .. وانتهت الابنة من رى البرسيم المسقاوى بعد أن حذرتها أمها من أن تمتد المياه الى البرسيم الفحل لأنها قد نوت بيعه .. ورفعت بهانة بصرها فوقع على محمود وقد وقف فى نهاية الطريق وأخذ يشير لها خفية فأحست بقلبها يهفو .. وودّت لو تطير اليه ولكنها كانت تعلم ما تضمره أمها نحوه .. وتعلم كيف حذرتها من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقابا يمكن أن توقعه بها لو علمت بأنها تخالف أمرها ولم تكن الفتاة تدرك بعد سر بغض أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئا عن الماضى الدفين فى صدرها .. بل كل ما كانت تعلمه هو أن أباها قد مات وهى طفلة لاتعى فى الحياة شيئا .. وأن أمها هى كل ما لها فى هذه الدنيا .. وانصرف محمود دون أن تجسر الفتاة على الذهاب اليه .. ومرّت الساعات والأم وابنتها منهمكتان فى زراعة الأرض .. وقبيل العصر بدأت الأم تفك

البهائم وأنبأت ابنتها أن تستعد للعودة الى الدار .. ودهشت الفتاة فقد كان الوقت ما زال مبكرا .. واستفسرت من أمها عن السبب فى هذه العودة المبكرة فأنباتها ببساطة أن عليوه وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة ولإتمام الخطوبة .. وأحست الفتاة بغصة فى حلقها وبرغبة شديدة فى البكاء .. ولكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الاعتراض .. وتبعت أمها الى الدار ، ولم تمض فترة قصيرة حتى حضر الشيخ ابراهيم وابنه وقرأت الفاتحة وانتهى الأمر .. وخرج الفتى والفتاة يتنزهان على شاطىء الترعة .. وكانت الفتاة لاتكاد تتماسك .. اذ كانت تحس أنها لاتبصر ما أمامها وأنها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى .. ووصلت الى الجميزة وهى مطأطئة الرأس واجمة حزينة .. ورنت ببصرها فاذا بها تبصر أمامها محمود .. وأحست بقلبها يكاد يقفز بين جوانحها .. وتمنت لو استطاعت أن ترتمى بين أحضانه .. ولكنها لم تجسر .. ووقفت متسمرة فى مكانها وكان محمود أول من تكلم فقد سألها فى دهشة واستياء :

– الى أين ؟

واجابه عليوة فى غضب مكتوم :

– ليس من شأنك تسأل !

– وقال محمود فى سخرية واحتقار :

– خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

– أنا أتركها ؟ ! أترك خطيبتى ؟

– خطيبتك ؟ !

ثم نظر الى الفتاة يستوضحها جلية الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعتان صامتتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها .. وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث .. وانتابته ثورة غضب جامحة .. وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العبث أن يحاول التفاهم مع أمها .. فهجم على عليوه .. واشتبك الإثنان .. ولم تمض لحظة حتى كان عليوه طريح الأرض والدماء تسيل من جرح فى جبهته وقد فقد وعيه .. ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

– هيا ..

وسألته وأنفاسها تتلاحق من فرط الذعر :

– الى أين ؟

– نهرب من القرية .

ونظرت الى الفتى الراقد بلا حراك ثم قالت هامسة :

– عليوه .. أنتركه هكذا ؟

ولكنه لم يجبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين اليه فأخذت تهرول بجواره وهى مشدوهة حيرى .

وسألته فى الطريق :

– ألا نذهب الى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا ؟

– أبى ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذى لايستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه .. تنتظرين منه أن يدبر أمرنا ؟

ان بيتنا هو أول مكان سيخطر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه .. خير لنا أن ننطلق الى القاهرة فلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة تستطيع ابتلاعنا فى جوفها فلا يعثر علينا أحد .

ومع ذلك فقد استوقفهما أول شرطى صادفهما فى نقطة المرور الكائنة عند مدخل المدينة .. فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا الى القرية مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ ابراهيم . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير .. وكانت الأم تشعر بنشوة ولذة الانتقام لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعا بين الحياة والموت .. وهاهو ابن (الغازية) سيوضع فى السجن بتهمة الشروع فى قتل . وفى تلك اللحظة أقبل شيخ واهن العظم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه .. ووقف بين القوم يلهث وهو لايكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم الشيخ معاطى فأخذوا لمرآه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل الى المخفر وهو الذى لايكاد يغادر فراشه .. وتحدث الشيخ موجها القول الى المرأة المنتصبة أمامه فى عناد وتحد والتى بدت فى عينيها ومضة الفوز :

— أنا أعرف ما برأسك .. أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة فى الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل أبناؤنا أوزارنا .. انى وحدى المسئول عن كل ما حدث . أنا الذى أدخلت الجرثومة الفاسدة فى معشرنا الطيب .. وأنا الذى كان يجب علىّ أن أتحمل وزر مافعلت .. كان يجب أن أقتل أنا زوجك دفاعا عن شرفى المهين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقتله وأتركك تثأرين منه ومنها فى ولديهما .. كان يجب أن أقوم أنا بالثأر بدلا من أن أدع الغير يتحمل عنى وزره .. ومع ذلك فانى لا أجد الوقت قد فات فأنا

أشعر أنى قادر على أن أثأر لنفسى ولك .. وأن أحمل العبء عنكم جميعا .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفى لمح البرق ، وقبل أن يدرك أحد من الجمع ما ينوى أن يفعل .. اختطف بندقية من يد أحد الخفراء ثم أفرغها فى صدر ابراهيم شيخ الخفراء .. وخر الرجل صريعا ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

– هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها .. ولكن قواه التى حشدها فى لحظة الثأر كانت قد خارت .. لقد استنفدت فعلته كل مابقى من زيت فى سراج حياته .. فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ فى مكانه وتكأكأ عليه الخفراء .. ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم .. لقد أطلقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وجر الحراس جسدى الشيخين الى الخارج ، وأحست أم بهانة أن جذوة الثأر فى نفسها قد انطفأت .. وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكى لهيبها وتشعل أوارها .. وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من محمود .. وغادرت المخفر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت بهانة يدها الى محمود فضغطت عليها معزية وهمست قائلة :

– لقد ظننته عاجزا .. ولكنه استطاع أن يدبر أمرنا قبل أن يرحل .. لن أتركك بعد هذا أبدا .

دموع الشاعرة

موجة الحب قد غمرت الشاعرة .. وتيار الهوى قد جرفها فيما جرف ، وهى التى كانت تجلس على الشاطىء مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس الى خضمه الصاخب وتنأى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لا تباشر الحب الا بالألفاظ والقوافى .. وكانت تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هى الا بقدر ما يتأثر حانوتى فى مأتم .

لم تدر من علَّمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة .. وكانت تقوله لأنها لايمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هى نفسها لتشعر بسحره وقوته .. الا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره فى مشاعرهم .. كانت تعلِّم الناس الهوى .. وهى اجهلهم به .. وكان شعرها يفيض بالحب .. وهى أشد الناس خلوا منه .. كانت كساقى الخمر يثمل الناس ولايثمل .. ويملأ بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد مايكون عن النشوة .. كانت ساقية الهوى فى كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذاقت الشاعرة طعم الهوى .. وذاقته من يد ساحر لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة .. واستسلمت فى لين ورفق .. ووضعت شفتيها على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف .. لقد أحبت الشاعرة !

أولئك الذين سلقهم بلسانه .. اذ كان انسانا ذا شخصيتين .. فهو يبدو فى حياته رقيقا هادئا .. جم الحياء . أما على صفحات الصحف التى يكتب بها فصول نقده .. فهو هجاء نقاد ، سلط اللسان لايرق ولا يلين .

ولم تك قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كتبه عن مسرحية (الخطايا) التى كانت تقوم فيها صاحبتنا بدور البطولة .. فصب عليها جام سخطه ، أو كما قال كل من قرأ النقد : مرمط بها الأرض .

ونهض بدوره ومدّ يده مصافحا .. وقام الأستاذ شاكر بواجب التعريف .

— الاستاذ ابراهيم الكاتب العبقرى والناقد المعروف .. أمينة هانم فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللامعة . هذا تعريف صورى لا محل له .. فلا أظن كلاكما الا يعرف الآخر خير معرفة .

وصمتت برهة وهى تفحصه بعينيها ثم أردفت قائلة :

— الأستاذ ابراهيم : تشرّفنا يا أفندم .. طبعا أعرفه .. ومن الذى لايعرفه ؟

وأحس ابراهيم ببعض الارتباك وتمتم قائلا :

– العفو يا افندم .

وصمتت برهة وهي تفصحه بعينيها ثم أردفت قائلة :

– من الذى لايعرفه ؟ ومن الذى لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه بالفتوات داير يبطَّح فى خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحنى رأسه فى رقة وأدب :

– العفو يا افندم .

وتدخل شاكر قائلا :

– تفضلى يا أمينة هانم .

ومد يده فجر كرسيا .. وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق شاكر بيديه ينادى الساقى . وقالت أمينة موجهة القول الى ابراهيم .

– أريد أن أعرف يا أستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعداوة مبيتة ؟

ونظر اليها ابراهيم فاحصا .. فوجد بها نضارة عجيبة .. يندر أن توجد فى الممثلات ، وصمت برهة وأجابها ضاحكا :

– أتقصدين مثلا أن أبى قد قتل أباك ؟

– سل نفسك .. ما سر تلك الحملات الشعواء التى تشنها علىّ ؟

– ان واجبى النقد .. وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع .

– لا .. لا ياأستاذ .. أنت هدّام .. هذا ليس نقدا .. هذا ضرب بالسياط .. هل تدرى .. أننى فكرت فى أن أزورك لأطلب منك الرفق والرحمة ؟

– يا افندم العفو .. هذا كثير .. هذا تقدير لا أستحقه . فلا أظن تلك الكلمات التى أكتبها لها تلك القيمة .

– أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل تدرى أية خسارة سببتها لى حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد أضعتها من يدى .. ألم تقل عنى فى نقدك لفيلم (الهاربة) أنى أتلفت الفيلم ؟ .. ان أسوأ مافى الأمر أن لكتابتك قيمة .

– هذا شىء لو كان قد حدث حقا فانى عليه جد آسف . أنا لم أقصد قط أن أسىء اليك .. ولكنى قصدت بنقدى اصلاحك .. فانى أرى فيك معدنا طيبا .. لديك ما يجعل منك ممثلة عالمية .. لديك مواهب كامنة لم تستغل قط .. ان عيبك – كما قلت من قبل – هو أنك لاتحيين فى دورك . انك تؤدينه بطريقة سطحية ، لا حرارة فيها ولا عمق ولا ايمان .. يجب أن تكونى أنت نفسك تلك المخلوقة التى تقومين بدورك .

– انى أحاول ذلك فعلا .

– المحاولة شىء والنجاح شىء آخر ، فالنجاح فى التمثيل ليس مجرد النية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد .. ان لديك الموهبة ولكنك لاتبذلين الجهد . فالجهد هو كما قلت لك أن تحيى فى دورك ، فلا يبدو قط أنك تبذلين جهدا .. ان أقصى الجهد هو الذى لايبدو جهدا .

– وماذا يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك ؟

– عيشى فى الدور الذى تؤدينه .. انسى نفسك .. ان لدىّ فكرة لاأشك ، لو حاولت تنفيذها ، فى أنها سترفعك الى القمة ، وتجعل منك شيئا آخر .

– تنوى بيعها لى ؟

– لا .. بل سأهبها لك مجانا .. لقد قلت لك انه يجب أن تتلاشى شخصيتك فى دورك .. ويبدو لى أنك لاتستطيعين أن تفعلى ذلك بمجرد محاولتك أن تحيى فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة المسرح .. أو أمام الكاميرا .. فلم لاتجربى أنْ تحيى دورك فى حياتك كلها .. سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ .. البسى دورك فلا تخلعيه بمجرد مغادرتك المسرح .. بل ابقى كما أنت .. وأحيى دورك فى الطريق .. وفى الدار .. وفى كل مكان .. ولا تخلعيه حتى تنتهى منه تماما .

– ولكن هذا كلام خيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه . هناك أدوار لا أستطيع أن أتقمصها خارج المسرح . أدوار أكرهها لأنها قد لا تلائم طبيعتى .

– لاتقبلى قط أدوارا لا تحبينها ، أو لا تلائم طبيعتك .. لاتقبلى سوى الأدوار التى تتوقين الى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام بها .

– لا تدعنا نحلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم أقبل الا الأدوار التى أرغب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه ..

– بل لأضحيت خيرا مائة مرة مما أنت عليه .. لم لاتجربى ؟

وضحكت أمينة ، وتدخل شاكر بعد طول انصات ، وقال لها ضاحكا :

– لاتصغى اليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو لايحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن انذارا نهائيا لكى لايعاود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهز ابراهيم رأسه وهو ينظر اليها نظرات عميقة وقال :

– لو لقيتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

* * *

مضى على اللقاء عامان .. ونحن الآن فى حديقة احدى الفيلات بمصر الجديدة وقد اضطجع ابراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدأ شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض فى ذهنه ذلك اللقاء ، وأخذ يذكر كل ما جرى بينها وبينه .. من كان يظن هذا ؟ من كان يظن أنه أول من سيكتوى بنيران تلك الفكرة العربيدة التى أوحى بها اليها وقتذاك ؟ تحيا فى دورها ؟ لافى المسرح فقط بل فى الطريق وفى الدار وفى كل مكان ؟ وتتقمص الشخصية التى تقوم بتمثيلها .. فلا تخلعها حتى تنتهى تماما من أداء الدور وتنفض يدها منه ؟

أى جنون هذا الذى دفعه الى أن يفضى اليها بذلك القول ؟ فض فوه قبل أن ينطق بتلك السخافة التى تثقل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين .. ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن النصيحة ستنقلب بمثل هذه الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط .. أن ما حدث بينهما شىء ممكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة .. وفى كل مرة يلقاها يرى فيها شيئا جديدا . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة عجيبة .. ليس بها من ذلك النوع الذى كان يظنه منها أى شبه أو صلة .. مخلوقة مرهفة الحس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، شديدة الذكاء ، حلوة المعشر ، يطغى جمال باطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيدًا يشد وثاقه اليها وأنه قد باتت ضرورة من ضرورات حياته ، لايستطيع عنها حولا .. وأخذت هى الأخرى تنساب فى تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعا من الآلهة ، وتجد فى أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت لو استطاعت أن تنفذ نصيحته الذهبية التى كان لايفتأ يكررها لها .. (أحيى فى دورك .. على المسرح وفى خارج المسرح .. ولاتخلعيه حتى تنتهى منه .. انسى نفسك وكونى دائما المخلوقة التى يود المؤلف ابرازها) .

وزادت رابطة الحب بينهما توثقا على مر الأيام ، ولم يكن يخطر بباله فى يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة .. فقد كان يعتقد أن الممثلة لايمكن أن تصلح زوجة وربة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار .. فقد وجد فيها خير من تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه .. وجد فيها نفسا قوية أبية حنونة ، وجد فيها بعدا عن التفاهة .. وجد فيها عمقا وحساسية .. فأقدم على الزواج منها .. وهكذا أضحى الناقد زوجا .. وأحست هى أن الله وهبها من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ فى ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى (الظلال المدلهة) التى تقوم هى فيها بدور البطولة ، وسبق العرض بروفات عديدة ، بذلت فيها جهدا جبارا فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى اذا ما ترفق بها فى نقده ، ترفق بها غير مرغم ، كانت تريد الإجادة ، حتى اذا امتدحها كان أمينا فى نقده . كانت تريد أن تثبت له أنها تحيا فى دورها حقا وأن نفسها تلاشت فى الشخصية الجديدة التى تقمصتها .. وبدأ هو يحس مبلغ ما فى نصيحته من السخف والجنون عندما وجد أن

المخلوقة التى تدله فى حبها قد أخذت تتسرب من يده ، المخلوقة العميقة الذكية الهادئة المتزنة الحس .. وأنه قد استبدل بها مخلوقة أخرى تافهة رعناء مخبولة تكره الدار وتبغض الأطفال .

وأسقط فى يده ولم يدر كيف يقنعها أن تنسى نصيحته ، وأن من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التى تقوم بدورها على المسرح فى حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شيء عن دورها بمجرد أن تترك المسرح ، والا أضحت الحياة بجوارها جحيما لايطاق . وبدأ يذوق الأمرين فى الاعتذار عن هفواتها وسخافاتها وحماقاتها مع المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزيه شيء الا أن المسألة ليست الا مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على عرض الرواية ، وحمد الله على أن دورها على ما سببه له من متاعب خير بكثير مما كان يمكن أن يكون .

ونجحت هى فى دورها الجديد أيما نجاح وبلغت فى تمثيلها الذروة ، وقال عنها النقاد أنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيرا عرض الرواية ، وأحس هو بعبء يتزاح عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيرا أن المخلوقة المثالية التى أحبها قد عادت اليه وأنها قد خلعت ثوب التفاهة الذى ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة .. حتى كان ذات يوم وقد عاد الى داره ، فسمع صراخا شديدا ، وأسرع الى مصدر الصراخ فوجدها تقف أمام المرآة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفيها وتهدل شعرها على وجهها وبدت فى عينها نظرات فزع مجنونة ، ووقف أمام الباب يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

ما رأيك ؟

— فيم ؟

— فى هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها اليه بمجموعة أوراق مخطوطة .. وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هى وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك الرداء الذى تنوى زوجته ارتداءه ، أو على الأصح تبين أى زوجه جديدة يوشك أن يعيش معها .. لقد كان دور البطلة فى الرواية الجديدة (عاهرة مجنونة) ياساتر يارب .. عاهرة ومجنونة ؟

— لا .. لا .. الا هذا .

ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، ونظرت اليه بعد أن أطبق الرواية وقالت له :

— طبعا .. ستقول كعادتك دائما ، أنها بايخة .

— لا .. لا .. ان عندى فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

— أريد أولا أن أعرف رأيك فى الرواية ؟

— لا أستطيع أن أبدى رأيى فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكنى سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق فى تفكير عميق ثم قال لها :

— ما رأيك فى أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

- أنت ؟ ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .

- وهل هذا معناه أنى لا أعرف الكتابة ؟ سأكتب لك الدور الذى خلق من أجلك ، وخلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لايفعل شيئا سوى كتابة المسرحية الجديدة وقد سجن نفسه فى حجرته لايزور أحدا ولايكلم أحدا .. وانتهى أخيرا من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهى .. زهرة ناضرة .. يفوح منها الشذى ، ويتضوع منها العبير ، أمرأة مثالية .. سديدة الرأى ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفيه مخلصة .. ربة دار وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولاتعينها عليه .. هادئة طيبة ، حمالة للأسى ، صبورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشىء الذى عشقه فى صاحبته وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ما وضعها مصاف الملائكة .

وأعطاها الرواية لكى تقرأها وتبدى له رأيها فيها ، وجلس فى الحديقة ينتظر فى قلق وخشية ، كيف ستقع الرواية من نفسها .

ومر الوقت بطيئا مملا حتى أحس بوقع أقدامها على رمال الحديقة ثم أحس يديها تحيطانه من عنقه . وسألها هامسا :

- كيف وجدتيها ؟

فأجابت :

- مدهشة .

ثم أدارت وجهها فأبصر فى عينها دمعة تترقرق وسألها فى دهشة :

– ما بالك ؟

فقالت :

– لقد رسمتنى كما تريد .. وسأكون كما رسمتنى .

ثم مدت يديها اليه بالرواية وقالت :

– خذها لا حاجة بى اليها .. انى أستطيع أن أحيا فى دورى الذى رسمته بدون حاجة اليها .. انى سأحيا فى دورى هنا فى الدار فقط .. سأنجب أطفالا فى الحديقة لا على المسرح .. هذا هو دورى الأخير .

★ ★ ★

الرداء الأخير

لم يكن يخطر على باله قط أنه سيلتقى بها .. عندما جلس والأستاذ على شاكر صاحب جريدة (المساء) في تراس شبرد يرشف قدحا من القهوة فاذا به يلمحها مقبلة تصعد درجات السلم فى خفة .

ولقد تملكه من رؤيتها شعور بالدهشة والإعجاب فقد كانت فى حقيقتها أكثر روعة مما تبدو على الشاشة أو على المسرح .. وشعر بالخجل والخشية من ذلك النقد الذى سلخها به منذ بضعة أيام .. وان كان قد أحس ببعض الطمأنينة لأنه توقع أن تمر به مر الكرام .. فلا شك فى أنها لاتعرف عنه سوى اسمه .

وتشاغل بتصفح جريدة أمامه .. ولكنه لم يشعر الا وصاحبه قد نهض محييا مرحبا .. ورفع بصره فاذا بها تقف وقد علت وجهها ابتسامة ساحرة .

كانت المرأة الأولى التى التقيا فيها وجها لوجه .. فما رآها من قبل الا على الشاشة البيضاء أو على خشبة المسرح ومع ذلك كتب عنها

كما كتب عن سواها الشيء الكثير .. وكال لها من لاذع النقد ومرير الكلام ما هوى بها الى أسفل سافلين ، ولقد فاجأه اللقاء فما كان به شديد لهفة عليه .. فقد كان أكثر ما يخشاه هو لقاء .

في ليلة عجيبة .. اقتطعها الله من ليالى الجنة .. وأسقطها لأهل لارض فاندست فى لياليهم .. ليلة ظلمها من سماها ليلة .. فهى ليست من الليل فى شىء .. ففى سحرها نور أبهر البصر من نور النهار .. ليلة .. لاينام فيها الا الحمقى والمجانين ..

فى هذه الليلة جلست الشاعرة وحولها جمع من الخلان ، أسكرهم سحر الليل والخمر والهوى .. فانطلقوا فى الرقص والضحك .. ولم يكن بينهم انسان الا غمر النعيم ، وملأته النشوة .. وبدأ الغناء فصمت القوم وأنصتوا .. وراحوا من الطرب فى شبه غيبوبة .. وانتهى الغناء فضج القوم بالتصفيق والهتاف .

ووقف بين القوم فجأة فتى أسمر الوجه ، دقيق التقاطع ، حلو الملامح .. وقد أمسك بقيثاره فى يده .. وأشار باليد الأخرى للقوم أن ينصتوا .. وأنكر القوم الفتى .. فقد كان غريبا مغمورا .. لم يسمع به من قبل فى عالم الغناء .. ولكن الفتى يأبه ، وأصر على أن يغنى .. وبدأ غناءه بالفعل .. فاذا بالقوم تتملكهم هزّة ، وينتفضون ، كما انتفض العصفور بلله القطر .

هذا الفتى لايمكن أن يكون آدميا .. اذا ليس بانسان قط من كان مثله .. وان كان انسانا .. فلاشك أنه ساحر من السحرة .. والا لما ترك القوم هكذا جاحظى الأعين فاغرى الأفواه ، لا حراك بهم ، كأنهم أجساد بلا أرواح أو كأنهم أهل الكهف !

وانتهى من الغناء ، فردّت الروح الى القوم ، وجاشت فيهم الحياة .. فانطلقت حناجرهم بصيحات الإعجاب ، وتكاكأوا على الفتى يوسعونه تقديرا واعجابا .

وهدأ القوم وسكتت ثائرتهم ، فصاح أحدهم يطالب الفتى أن يغنيهم بعضا من شعر الشاعرة .. وظهرت الحيرة على الفتى .. وبدا عليه أنه لم يسمع لا عن الشاعرة ولا عن شعر الشاعرة .

وأصر القوم على طلبهم ، فلقنوا الفتى من نظم الشاعرة أبياتا تسيل رقة وعذوبة .. وسرعان ما ارتجل الفتى لها لحنا وبدأ فى غنائه .

وخيل الى الشاعرة أنها لاتبصر من حولها .. وأحست لحن الفتى قد حملها بعيدا الى عالم ملىء بالفتنة والسحر .. عالم لايحوى من الكائنات سواهما .. وخيل اليها أنها تسمع همسات تقول :

(هنا لاتقع العين على غيرى ولاغيرك) .

أى عذوبة أضفاها اللحن على الشعر ؟ وأى جمال ، ورونق كساه اياه ؟ .. أهذا هو حقا ما قالته هى ؟ لاتظن .. فو الله ما أصاب الشعر من نفسها عندما قالته مثقال ذرة مما أصابه عندما غناه الفتى .. لقد كانت التمثال .. وكان كنافخ الروح فيه .

وانتهى الفتى من الغناء .. وكم ودت لو لم يكن لغنائه من نهاية .. بل يستمر يغنى ويغنى فلا ينتهى الا وقد انتهى العمر ونضب معين الحياة .

ومنذ تلك الليلة ، والشاعرة قد غمرتها نشوة لاتكاد تفيق منها .. لقد وقعت الشاعرة فيما أوقعت الناس فيه .. وذاقت الكأس التى كانت تكتفى بحملها الى العشاق .. فأسكرتها خمرها .

وأحست الشاعرة لذة الهوى ، وأدركت أن ما نظمته فى الحب كان بالنسبة لحقيقته قشورا زائفة ، واندفع الفتى الموسيقى الناشىء فى حبها حبا جنونيا .

ورحل العاشقان الى كوخ الفتى على شاطىء البحر .. ليمرحا فيه فترة من الوقت بعد أن اتفقا على الزواج .

ووقفت الشاعرة تطل من نافذة الكوخ وقد امتد البحر أمامها فى زرقة عجيبة ، وصافح نسيمه الرطب وجهها فأحست أن بالحياة حقائق قد تفوق فى متعتها أجمل الأحلام .. وعجبت لنفسها كيف استطاعت أن تحيا فيما مضى دون حب .. وكيف كانت تحتمل تلك الحياة الجوفاء الخالية !

وأحست الفتاة بوقع أقدام تدب خلفها متسللة .. وكانت أذناها لاتخطئان قط صوت أقدام الفتى .. ولكنها لم تتحرك كأنها ما شعرت بقدومه .. لقد كانت تعرف ماذا سيفعل ، وكانت تتمنى أن يفعله فى كل آونة .. كان كثيرا ما يتسلل اليها .. فلا تشعر الا وشفتاه قد مستا عنقها فى لهفة وشغف فتسرى فى جسدها رعدة لذيذة ، وتتسلل الشفتان الملتهبتان من العنق الى الذقن الى الفم الى العينين .. فلا تتركانها الا ووجهها قد ألهبته القبل ، وكانت تحس به فى كل مرة عندما يتسلل خلفها ولكنها كانت دائما تدعى أنها لاتشعر !

وكان كوخ الفتى – على صغره وبساطته – جميلا أنيقا .. وكان المكان خاليا ألا من بضعة أكواخ صغيرة متشابهة .. وكان الفتى يعيش مع أمه العجوز الطيبة التى رحبت بقدوم الفتاة الشاعرة أيما ترحيب .. فقد كانت الفتاة رقيقة لطيفة المعشر .. حلوة الحديث .. فسرعان ما جذبت اليها قلب العجوز .

وفى ذات يوم نزلت الى حديقة الكوخ فاذا بفتاة شقراء قد جلست فى ركن الحديقة .. وعندما اقتربت منها الشاعرة وقفت الفتاة فى احترام شديد وقد بدا عليها الخجل ثم قالت بصوت خفيض :

— لقد كنت انتظر خروجك فى لهفة .. ألست سيدتى الشاعرة ؟

وفوجئت الشاعرة وبدا عليها الارتباك فقد انغمرت فى حياة الهوى الجديدة ونسيت كل ما عداها .. حتى أنها شاعرة .. فقد خلا رأسها من كل شىء الا الحب .. وصمتت لحظة ثم أجابت بهدوء :

— نعم .. انى هى .

وملأ السرور نفس الفتاة الصغيرة الشقراء، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة جذابة ، وقالت فى فرح شديد :

— لقد سمعت اسمك يتردد على فم الخادمة ، ولم يخطر لى على بال أنك الشاعرة التى أحفظ لها كل بيت قالته .. بل كل كلمة .. بل كل حرف ، ولم تكن لى أمنية الا لقاءك .. أو حتى رؤيتك عن بعد .. فتخيلى ياسيدتى أننى أسمع أنك تقطنين بجوارنا .. أى صدفة عجيبة تلك التى ألقت بى الى هذه الناحية ؟ ! اننا لم نقطن هنا الا منذ يومين ، وكنت لا أرغب فى السكنى فى هذا المكان ، ولكننا لم نجد سواه .. فنزلنا فيه مكرهين .. فتصوّرى ياسيدتى أننى أسمع بعد ذلك أنك تنزلين بجوارنا .. أى فرصة سعيدة ..

وكان الحديث يتدفق من فم الفتاة . فلم يسع الشاعرة الا أن تستمع . ولو قيل لها هذا الكلام فى غير ذلك الوقت لما أحست بأن هناك من يعادلها غبطة وسعادة .. اذ لم يكن يسرها شىء قدر أن تسمع

ثناء المعجبين بشعرها .. ولكنها الآن .. لم تجد معنى لكلمات الفتاة فلم تسرّها .. ولم تحرك مشاعرها .. لقد كانت زاهدة فى كل شيء عدا الحب .. لم تكن ترغب فى رؤية الفتاة أو غيرها .. لأنها كانت تود ألا يشغلها شيء عن فتاها المحبوب .

ولم تدر الشاعرة بم تجيب الفتاة وبدت عليها الحيرة والضيق .. ولكن الفتاة لم تترك لها فرصة للحيرة فقد عاودت الحديث قائلة :

— الواقع ياسيدتى أنه لاشيء يبعث على الغبطة قدر أن يقابل المرء عظماء الناس .. ويجلس اليهم ويحدثهم .

وقطعت الفتاة حديثها ، فقد بدا الفتى فى باب الكوخ ، بقوامه الفارع ، وملامحه الجذّابة .. وأبصرت الشاعرة عينى الفتاة تبرقان بالإعجاب ، فأحست بشعور قلق مبهم ، وسألتها الفتاة بسذاجة :

— ترى من يكون؟

— أنه صاحب الكوخ ، وزوجى فى المستقبل .

واقترب الفتى .. فقدمت اليه الفتاة قائلة :

— جارتكم الجديدة .

وسلم عليها الفتى باسما مرحبا . وقالت الفتاة :

— انه مما يشرف الناحية ياسيدى أن تنزل بها الشاعرة ، وسيسجل لها التاريخ ذلك .

وعلا صوت الفتى مقهقها وأجاب :

— لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الشهرة .. أو ترين أن أهل هذه الناحية مصابون بداء الشعر ؟

وضاقت الشاعرة ذرعا بمديح الفتاة .. وساءلت نفسها اذا كانت الفتاة تنوى أن تضيع عليها يومها بالاستمرار فى كيل ألفاظ المديح والإعجاب .. وأحست بشدة بغضها للشعر .. والشعراء .. ووجدت نفسها تقول للفتاة معتذرة :

— كنا ننوى التنزه على الشاطىء .. فلعل مغادرتنا لك لاتضايقك .

وحاولت الشاعرة أن تكون رقيقة فى اعتذارها .. ولكن جملتها بدت جافة .. حتى دهش الفتى لها بعض الدهشة وبدا على وجه الفتاة احمرار خجل طفيف .. وأجابت متلعثمة :

— بالعكس يا سيدتى .. انا التى أخشى أن أكون قد ضايقتك بتطفلى .. ولكن عذرى فى ذلك هو شدة لهفتى الى رؤيتك .

وشدّت الفتاة على يديهما ، ورغبت الشاعرة فى أن تعتذر عن خشونتها فقالت للفتاة :

— أرجو ألا تكفى عن زيارتنا بين آن وآخر .. فان زيارتك تسعدنا .

وبرقت أسارير الفتاة وغادرتهما مغتبطة .

وانطلق العاشقان الى البحر وبنفس الشاعرة بعض القلق والخوف والحقد ، والغير .. ولكن عند عودتهما كان كل ما بنفسها قد ذهب وحل محله الثقة والاطمئنان .

وفى المساء جلس العاشقان ينعمان بأحلام الحب وأمانيه العذبة . الى أن قال الفتى :

– لقد شغلنا الحب عن الحديث عن شعرك .. لقد أدهشتنى الفتاة بما قالت ، فانى لم أسمع منك غير تلك الأبيات التى غنيتها فى أول لقاء .

– لاتصدق حديثها ..فأغلب ظنى أنها طفلة حمقاء .. ودعنا من حديث الشعر .. فلا أريد أن يشغلنا الآن شيء عن حديث الحب .

وفى اليوم التالى عادت الفتاة فى الصباح المبكر وهى تحمل معها رزمة من الورق ، واستقبلها الفتى مرحبا ، فسألته عن الشاعرة .. وأخبرته أنها تود لو تستطيع الفوز بتوقيعها على مجموعة الشعر التى سجلتها فى هذه الأوراق .. وبعد هنيهة قدمت الشاعرة فما أن رأت الفتاة حتى عاودها القلق .. وسألتها الفتاة فى رفق وأدب أن تسمح لها بامضائها .

ودهش الفتى عندما وقع بصره على مجموعة الأوراق المليئة بالشعر .. وأخذ يقلب صفحاتها بين يديه وسأل الشاعرة :

كل هذا من نظمك أنت ؟

– نعم .

وسألته الفتاة فى دهشة :

– ألم تقرأ لها شيئا ؟ انى لم أشغف بشيء فى الحياة قدر شغفى بشعرها .

وأحست الشاعرة أنها لن تستطيع أن تحتمل المزيد من مدح الفتاة .. وكان الجو يبشر بيوم شديد القيظ فاقترحت الشاعرة أن يذهبا للسباحة فى البحر .. ولكن الفتاة صاحت دهشة متعجبة :

– أنت تسبحين ؟

ونظرت اليها الشاعرة نظرتها الى بلهاء أو مجنونة وسألتها فى هدوء :

– وأى غرابة فى ذلك.؟

– شاعرة .. تسبح ! لم أكن أظن أن العظماء يستطيعون السباحة ، اذ يخيل الىّ أنه ليس لديهم وقت لذلك .. وانهم لايغادرون صومعاتهم التى يتلقون فيها الوحى .

ولاحظ الفتى تبرّم الشاعرة بالفتاة وأراد أن ينقذ الموقف فعرض أن يذهبوا جميعا للسباحة . فبدا على الفتاة الفرح لهذا الاقتراح وانطلقت معهما الى البحر .

وكانت الفتاة ماهرة في السباحة فاندفعت فى البحر .. واندفع معها الفتى .. وحاولت الشاعرة أن تندفع .. ولكنها شعرت بالعجز والوهن .. وأحست أنها – كما قالت الفتاة – لاتعدو أن تكون شاعرة لا قبل لها بالسباحة .. وعادت الشاعرة الى الشاطىء .. وغاب الفتى والفتاة عن بصرها فى جوف الماء .. ولم تستطع أن تمنع لوعة تسرّبت الى نفسها .. ووجدت قدماها تسوقانها الى الكوخ فعادت من حيث أتت .

وجلست فى حجرتها حزينة واجمة .. لقد أحست بخوف من الفتاة منذ أن وقع عليها بصرها .. لم تدر ما سبب الخوف .

ولكنها لم تستطع أن تمنعه وأحست بأنها مجهدة منهكة ، وغلبها الإعياء فراحت فى اغفاءة .

وعندما أفاقت كان الفتى والفتاة قد عادا .. وسمعت صوت الفتاة تتحدث .. فأنصتت قليلا .. فاذا بالفتاة تقرأ للفتى أشعارها .

وقامت الشاعرة وأصلحت نفسها فى المرآة .. وكانت تحس شعور المتأهب لقتال .. القادم على معركة .

وعندما أبصر الفتى الشاعرة نظر اليها نظرة بها بعض الغرابة وقال :

– لقد حدثتنى عنك بما كنت أجهل .. وقرأت لى الكثير من شعرك .

ورغبت الشاعرة فى أن تنحو بالكلام ناحية أخرى فقالت :

– لقد أصابنى الإجهاد فى البحر .. لأنى فى حاجة الى كثرة المران .

وردّت الفتاة فى رفق ولين :

– لا أظن العظماء فى حاجة الى أن يجيدوا السباحة .

فهتفت الشاعرة فى خشونة :

– لا أظن هناك علاقة بين العظمة والسباحة .. ثم شيئا آخر .. أرجوك أن تكفى عن الزج بى فى معشر العظماء فما كنت منهم فى يوم من الأيام .

وانصرفت الفتاة بعد قليل ، وجلست الشاعرة والفتى وحيدين ، وأحست الأولى أن بالجو شيئا لم تعتده .. كأن ستارا قد قام بينهما وبين الفتى .

قالت : لم لاتتكلم .. انى أحس أن بنفسك شيئا .. قله أيا كان .. فهو خير من الصمت .

– انى أسائل نفسى .. ترى هل أصلح لك .. لقد أخفيت عنى حقيقتك .. كنت أعلم أنك تقولين الشعر .. ولكنى لم أعلم قط أن لك

دواوينا يحفظها الناس عن ظهر قلب .. ما ظننت أنك عظيمة بهذا القدر .. ولكنى أتساءل الآن .. أيصلح هذا الفتى الموسيقى الناشىء الذى لم يشق طريقه فى الحياة بعد لهذه الشاعرة العظيمة المتربعة على قمة المجد .. انى لا أكره شيئا فى الحياة قدر أن أكون الشريك الأضعف أو الأقل قدرا .. خير لنا أن ننتظر قليلا حتى أسير فى الطريق .. ثم أصبح ندًّا لك .

وأحست الشاعرة أن قلبها يعصره الألم ، وأحست بالدموع تترقرق فى عينيها وقالت :

— اذا كان الشعر هو كل مافى الأمر .. فأعدك ألا أقول الشعر أبدا .

— هذا أسوأ ما فى الأمر .. فانى سأكون بذلك حجر عثرة فى سبيلك .

ومرّت الأيام بعد ذلك ثقيلة مملة .. لم يحدث بينهما شىء .. سوى أن تغير كل شىء ، ولم يفعل الفتى ما يحزنها ولكن لم يك يفعل كذلك أى شىء .. لقد خبا الشوق وذهبت اللهفة .. لقد انطفأت ثورة الحب التى كانت تتأجج بينهما .

وأخيرا أدركت الشاعرة أنه لم يعد هناك أمل فى نعيم أو رجاء فى هناء ، وأن الأيام تباعد بينهما رويدا رويدا .. فقررت الرحيل .. وذات صباح أنبأته بعزمها . وفهم الفتى فأطرق برأسه برهة . ولم يجب بشىء .

وأعدت الشاعرة حقائبها .

وهمت بمغادرة الدار .. فاذا بالفتاة تجلس فى الحديقة كما رأتها أول مرة ، ورفعت الفتاة رأسها وبدت عليها أمارات الدهشة والحزن وقالت :

– أبهذه السرعة ستغادريننا ؟ كم أود لو تبقين بيننا مدة أطول ، ولكن هكذا العظماء دائما سريعو الملل والسأم .

وحدجتها الشاعرة بنظرة فاحصة .. فبدا لها فى الفتاة شىء لم تتنبه اليه من قبل .. شىء جعل الدم يغلى فى عروقها .. لقد لمحت في عينى الفتاة نظرات تهكم وسخرية وانتصار .. وبدت لها الحقيقة لأول مرة جلية واضحة .. لقد كانت لعبة فى يد الفتاة التى ظنتها ساذجة حمقاء .. سلبتها فتاها بطريقة عجيبة لم تخطر لها على بال قط .. لقد أحبت الفتى ووجدت أن الشاعرة لاعيب فيها ولانقص تستطيع استغلاله لإبعاد الفتى عنها .. فلم تجد خيرا من الطريقة التى اتبعتها .. يا لها من شيطانة ماكرة .

صاحت الفتاة :

– أيتها الماكرة الخبيثة كفى هزلا وسخرية .. لقد حاولت أن تفهميه أن الفرق بيننا شاسع بعيد ، وأنَ أحدنا فى القمة والآخر فى الحضيض ، وغرست فى نفسه أن أحدنا لايصلح للآخر كى تأخذيه لنفسك .. لقد ظننتك حمقاء ، ولكن كنت أنا الحمقاء .

وبدا الفتى فى تلك اللحظة على الباب فصاحت الشاعرة باكية :

– انى أمقتكما !

وانطلقت تعدو الى الشاطىء هاربة من الكوخ .. وهناك استقرت لحظة على احدى صخور الشاطىء وقد تلاحقت أنفاسها ، وبعد برهة

قصيرة خيل اليها أنها تسمع وقع أقدام خلفها فأدركت أنه صدى الذكرى الماضية .. ولكنها أحست فجأة بشفتين على عنقها وانتقلت الشفتان الى العينين المبللتين بالدموع واستقرتا أخيرا على الشفتين ، ولو خيرت الشاعرة بين لذة هذه اللحظة ، وبين العمر كله ، لاختارت تلك اللحظة .. لقد فهم الفتى كل شىء ولم يعد يخشى شيئا ، وصمم أن يبلغ الى قمة المجد حتى يتساويا وطلب منها أن تنشده بعضا من شعرها .. فغناه لها .. وراحا فى نشوة من الهوى والشعر والغناء .

★ ★ ★

ليالي الطفولة

لم تكن لى أمنية فى ذلك الوقت الا السكنى فى ذلك ، البيت (المسكون) .. ولم يكن ذلك حبا منى فى الجن والأرواح التى كانوا يدعون أنها تسكنه .. ولا كان عن رغبة فى مشاكستها ومعاكستها .. بل كان كل ما يستهوينى فيه ، هو شجرة التوت العالية التى تطل بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة المتوحشة .

كنت وقتئذ فى الثانية عشرة .. وكنا نمر على الدار المسكونة كل صباح عند ذهابنا الى المدرسة .. ولم يكن يلذ لنا شىء قدر أن نمد أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطيع ماوراءه من أشجار متكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تبدو لنا أنها بحر خضم لاتكاد تبلغ العين مداه .. وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التى كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس لم يظهر بعد . فنتسلل من دورنا خفية لنذهب الى الدار المسكونة قبل

أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز .. فنتسلق السور ونقطف أوراق التوت الذى كنا نحتاج اليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهوينا تربيته .

وكان بيننا وبين الحارس عم محمد ، وهراوته ، ما صنع الحداد ، وانى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأبلة العجوز أن يصنع بورق التوت ، ولأى أمر كان يحرّمه علينا ويجرى وراءنا بهراوته صاخبا مهددا عندما يضبطنا متلبسين بجريمة الشعلقة على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف ورق التوت الى رغبتنا فى معاكسة عم محمد واستثارة غضبه .. والعبث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفننا فيه . وانى لأذكر ذلك اليوم الذى وطدنا فيه النية على أن نقتحم الحديقة .. ونرتع فيها كما نشاء .. ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها .. وذهبنا الى الدار ومع كل منا هراوة وقد صممنا على ألا نفر من عم محمد .. بل نواجهه مواجهة الند للند .. ونطلب اليه أن يسمح لنا بالدخول ، فان رضى كان بها ، وان أبى فهو الجانى على نفسه .. وهو المسئول عما سيحدث له نتيجة العلقة الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا الى الدار لم نجد صاحبنا على بابها .. ووجدنا الباب غير مغلق .. وناديناه فلم يجبنا أحد .. وخشينا أن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كمينا ، فترددنا برهة ، ولكن أحدنا وهو محمود .. (أدى بولو) (هكذا كان يسمى نفسه تشبيها بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا عفرتة .. فاقتحم الباب بخطوات ثابتة .. واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه صفارة طويلة ورأيناه قد أقبل فى تؤده وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقة الخاصة .. ثم أشار الينا بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكننا ترددنا وسألناه فى أصوات هامسة :

– وعم محمد ؟

– لقد سجنته .. وكفى الله المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجده منهمكا فى الصلاة فى حجرته .. فما كان منه الا أن أغلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه ، وترك الرجل يصلى فى هدوء ما شاء له أن يصلى .

وكان يوما مشهودا من الأيام التى لايجود بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة العجيبة التى كنا ننتشى لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى .. قد أضحت اليوم ملكا خاصا لنا لايشاركنا فيها أحد .. وعم محمد عدونا اللدود .. قد أضحى حبيسا مع هراوته .. لايملك كلاهما لنا ضرا ولا أذى .

وكان الوقت ربيعا ، وكل ما فى الحديقة ملوّن مزدهر وأشجار المشمش قد رصعت بالزهور البيضاء كأنها فصوص الماس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العبير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تتفجر من فرط الحياة .

وانطلقنا فى أنحاء الحديقة .. وتسلقنا أشجارها ، وقطفنا الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالمياه ، وعبثنا ما شاءت لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومثلنا كل أدوار البطولة التى رأيناها على الشاشة البيضاء من (طرزان) و (توم ميكس) .

وأخيرا .. وبعد أن أعيانا التعب .. وبعد أن استنفذنا كل ما نملك من قوى فى الجرى والقفز .. وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل

اللعب .. وبعد أن قلبنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا فى أرضها (حوض البحر الأبيض) و (نهر النيل) .. ورفعنا فيها (جبالا الهملايا) ، و (هضبة التبت) ، وصنعنا من أفرع الشجر سفنا ومعابر وأكواخا وقصورا .. ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيرا واحدا هادئا فى وكره .. أخيرا .. وبعد كل هذا فكرنا فى العودة الى دورتا .

وهنا وجدنا أنفسنا فى مأذق حرج . ماذا نصنع بعم محمد ؟ لم يكن أمامنا الا أحد أمرين : اما أن نتركه فى سجنه فيموت جوعا .. واما أن نفتح له فيميتنا ضربا .

وفيما نحن حيارى .. رأينا (ادى بولو) يتركنا ويعدو الى آخر الحديقة ثم يعود ومعه حبل طويل ورأيناه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه فى طرف الحبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيدا .. ثم يسير هو بالطرف الآخر فيذهب الى حجرة الرجل .

وطرق الباب بيده طرقة خفيفة ونادى :

— عم محمد .

وهنا سمعنا صياحا وضجيجا كأن فى الحجرة ثورا هائجا وعلت من الحجرة ألفاظ السباب .. ووصلت الى آذاننا كلمات التهديد والوعيد ، فشعرنا بالفزع والخوف .. وانتهز (ادى بولو) لحظة صمت من الرجل فصاح به :

— اسمع ياعم محمد .. اذا كنت تنوى أن تستمر على هذا الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين اذا تركناك تموت جوعا فى حجرتك كالكلب الغبى .. واذا كنت تريد الحياة فاسمع الىّ .

وسكن الرجل وأصغى .. فاستمر صاحبنا فى الحديث :

- سأعطيك المفتاح من أسفل الباب .. ولكن ليس مباشرة حتى لاتفتح الباب المفتاح وتلاحقنا بهراوتك ، بل سأعطيك طرف حبل ربط المفتاح فى آخره .. فما عليك لكى تأخذ المفتاح الا أن تستمر فى جذب الحبل .. حتى يصل اليك المفتاح .

ثم مدّ يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا الى باب الحديقة ومعنا الحبل الذى ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا الى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا الفرار .

وعدنا الى دورنا .. كأننا لم نرتكب أمرا ادّا ، ولا فعلا نكرا . وتسللت من الباب واتجهت رأسا الى الحمام حتى أزيل ما علق بى من طين وأوساخ .

وذهبت الى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أبى وأمى عن أن البيت الذى نقطنه لم يعد صالحا لنا ، وأنه يفكر فى الانتقال الى بيت أوسع ، وأنه لايدرى ماذا يمنعنا من أن نستأجر البيت الذى يدعى الناس أنه (مسكون) فليس هناك فى الناحية بيت فى مثل فخامته ولا ضآلة أجره .

وكدت أقفز من مكانى لفرط الفرح وصحت بأبى :

- أقسم لك أنه ليس مسكونا ، وأن الأمر لايزيد على اشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمى تمتد من خلف المنضدة ، فتقرضنى قرصة لاذعة فى اللباليب ، وتنهانى زاجرة ثائرة :

- لقد قلت لك ألا تتدخل فيما لايعنيك .. كل وانت ساكت .

ثم وجهت الحديث الى أبي ، وشرر الغضب يتطاير من عينيها :

- لم أر في حياتي قط من هو أسخف منك الا ولدك ولا من ولدك الا أباه .. أتريد منى أن أقطن في هذا البيت الموحش المخيف ، ان السكنى فى المقابر خير عندى وأفضل !

ولكنى أبى - بارك الله فيه - استطاع أن يقنع المرأة العنيدة بأن تذهب لترى البيت ، فقد يتغير رأيها عندما تراه .

ولو أخبرونى وقتئذ أننى قد صرت امبراطورا للعالم لما كانت فرحتى بأشد منها عند ما عادت أمى وأخبرتنا أنها قد وافقت على الانتقال الى البيت (المسكون) .

وكان فرحى فى الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحت أرقص فى الحجرات من فرط الطرب .. من كان يظن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقتنا وشجرة التوت ستصبح كلها ملكا لى .. وسأدخل صبية الناحية ، يأخذون من ورقها ما شاءوا .. وهم آمنون مطمئنون من شر عم محمد .

ولم يكد يخطر على بالى عم محمد حتى قفزت من مكانى كأن بى مسا من جنون ، وصحت أخاطب نفسى :

- عم محمد ! (وقعت والا الهوى رماك) ، من كان يتخيل أن هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذى طالما نالنى من هراوته الشيء الكثير .. سيصبح تحت رحمتى .. لقد أصبحت من الآن سيده ، سأثأر منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا الى دارنا الجديد ، وكان فرحنا بها لايقدر ، فقد كانت الدار فاخرة حقا .. وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية .. وكان من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا لشيء الا لمجرد اشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن والأرواح .

وكان يبدو على عم محمد أنه لم يكن مرتاحا لسكنانا فقد أخرجناه من مكمنه وأزعجناه في مأمنه ، وحرمناه من هدوئه الذى اعتاده وسط الدار الفسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحزّ في نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا يخشون جانبه ، ويفزعون من رؤيته .. قد باتوا يأمرونه فيذعن للأمر ، ويزجرونه فيزدجر ... وفقد سلطانه عليهم وعلى الدار .. فاستباحوا حماها .. وانتهكوا حرمتها .

ومرت الأيام ونحن نرتع في الدار ونمرح ، حتى حدث ذات ليلة ما روّعنا وملأ نفوسنا فزعنا .

سمعنا صوت أنين يبدأ خافتا ، ثم أخذ يعلو رويدا .. رويدا ، ثم انقطع فجأة .. وفي الصباح نقب أبى في أنحاء الدار عله يعثر على مصدر الأنين ، فقد يكون قطة مريضة أو كلبا جريحا ، ولكنه لم يعثر على شيء .

وفي الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه ، وزاد عليه بعض الصراخ الذى جعلنا نكمش في أغطيتنا ، وجعلت أمي تقسم أن تترك الدار عندما تشرق الشمس .

وفي الصباح أرسل أبى في طلب عم محمد وسأله عن سر ذلك الأنين والصراخ ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب :

– انه صوت الفتاة السجينة .

وسأله فى دهشة :

– الفتاة السجينة ؟ هنا فى الدار فتاة سجينة ؟

وهزَّ الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبى فى سخرية :

– ومن الذى أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولم لاتنطلق الى حيث تشاء ؟ وفى أى حجرة تنزل هذه السجينة الحمقاء ؟

– انها فى البدروم يا سيدى .. وقد سمعت قصتها من أبى الذى سمعها من جدى .. لقد قال لى هذه الدار كان يملكها فى غابر الزمان أمير كريم المحتد .. عريق المنبت وسيم الطلعة ، متين البنيان ، وكان يعيش فى الدار مع أمه وأختيه .. وكانت أمه تود أن تزوّج ابنها باحدى الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك . فقد كان خالى القلب ، وسارت الأمور على خير حال .. حتى حدث ذات مرة أن صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة فى عرض الطريق ، فجرحت الفتاة ورق الأمير لحالها فحملها الى بيتها وأحضر لها طبيبا وداوم على زيارتها والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها .. ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت بجرح آخر أعمق أثرا ، كان من العسير عليها شفاؤه اذ كان جرحا فى القلب لا فى الجسد ، فقد أحبت الفتاة الأمير حبا يائسا ووجدت نفسها تتخبط فى هوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ، وأن عطفه قد ازداد عن ذى قبل .. وأخيرا اتضح للفتاة ان الأمير قد بات هو الآخر صبا مولعا .

واندفع الأمير في تيار الهوى فتزوج الفتاة وحملها الى الدار .. وقدمها الى أختيه . فأصابهما الذهول ، ولكنهما تمالكتا نفسيهما ، وتصنعتا الترحيب بها .

وأحنق الأم أن يتزوّج ابنها مثل هذه الفتاة الفقيرة .. ولم تطق الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار .. فعقدن النية على التخلص منها بأى حال .

وفى ذات يوم غاب الأمير عن الدار فى رحلة تستغرق بضعة أيام ، فاستدرجن الفتاة الى القبور بالبدروم ودفعن بها الى داخله وتركنها حبيسة فيه .

وظلت الفتاة فى القبو مذهولة مشدوهة ، ثم بدأ الجوع يمزق أحشاءها ، فأخذت تستنجد وتستغيث ، وعلا أنينها وصياحها حتى بحّ منها الصوت وارتمت جثة هامدة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة .. فجن الرجل .. وترك البيت هائما .. هذه هى القصة يا سيدى .. ومن يومها والأنين والصياح لاينقطعان أبدا من القبو .

وانتهى حديث عم محمد وبدا علينا التأثر واستقر الرأى على أن نغادر الدار بمجرد العثور على دار أخرى .

واجتمعت بأصدقائى من الصبية ، فقصصت عليهم النبأ ، فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة .. وأن يعود (عم محمد) الى مطاردتهم بهراوته .

وانصرف الجميع .. ولكن محمود أو (ادى بولو) لم ينصرف .. ورأيته يقترب منى ويهمس فى أذنى أنه يخشى أن يكون فى الأمر دسيسة

من عم محمد يراد بها اخراجنا من البيت .. ثم اتفق معى على أن نتسلل ليلا لمراقبة عم محمد والتقينا فى الليل واختبأنا خلف شجرة أمام حجرة عم محمد وأخذنا ننتظر .

ولم تمض برهة قصيرة .. حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرته يمينه ويساره .. ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذى كان يملؤنا فزعا وهلعا .

وعاد الرجل الى الحجرة ، وطلب منى صاحبى ألا أخبر أحدا بما يفعله عجوز النحس .. وأن أقابله فى الليلة التالية ، واتفق معى على الدور الذى سنقوم به .

وفى الليلة التالية سبقنا الرجل الى القبو ، وانتظرناه هناك قابعين فى الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبى يصدر من فمه أنينا يشبه ذلك الذى يصدره العجوز ، فوقف مكانه متسمرا لا حراك به وقد عقد الفزع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم فى صوت خشن مقلدا صوت الرجال :

– ماذا يبكيك يافاتنتى ؟

وردّ صاحبى مقلدا صوت الفتاة :

– لقد سجنونى فى القبو ، وتركونى بلا طعام ، وأشعر بالجوع يلهب أحشائى .

– اطمئنى يا حبيبتى .. فانى سأحضر لك طعاما شهيا .. سأحضر لك لحمة رأس أسود عجوز ، ولكنها بلا مخ .. لأن صاحبها أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا عم محمد يصرخ صرخة مدوية ، ورأيناه يولى الأدبار كأن به مساً من شيطان رجيم .

وفى الصباح لم نر لعم محمد أثرا فى حجرته .. فقد فرّ من البيت .. ولم نعد بعد ذلك نسمع أنين الليل وعويله ، ولم يعد أحد يدعى بعد ذلك أن البيت مسكون .. اللهم الا رجلاً واحدا .. كان يؤمن فى قرارة نفسه أن البيت مسكون حقا .. ولم يك يجسر أن يقترب منه قط . وذلك هو عم محمد .

★ ★ ★

عفريتة الليل

كان الوقت ابان الظهيرة .. وقد أظلتنى من وهج الشمس شجرة عتيقة كأنها والزمن صنوان .. وجلس العجوز أمامى يسبح بمسبحة فى يده ويتمتم بألفاظ لعله يستغفر ربه .. وبدا البيت أمامى كأنه قلعة ضخمة من قلاع العصور الوسطى .. فرددت لو استطعت أن أخترق ببصرى تلك السحب المسدلة من الجدران الضخمة حتى أبصر ما بداخلها من الأحاجى والأسرار .. وقلت للعجوز أستحثه على الكلام :

— تقول ان هذه الدار لم يقطنها انسى قط ؟ أتقصد بذلك أنه قد يكون بها سكان من نوع آخر ؟

— نعم يابنى .. لقد استبدلت الدار سكانا بسكان .. لقد كانت الدار تعج بالحياة .. فأصبحت تضج بالصمت والعدم ، ولو أنى لم أرها قط الا فى هذا الصمت والعدم .. فمنذ أن وعيت على هذه الدنيا ، وأنا أبصرها كما تبصرها الآن .. موحشة كئيبة .. مقفرة مظلمة .. ولكن أبى قد أنبأنى بقصتها التى سمعها عن أبيه عن جده .. فقد توارثت

عائلتنا الحراسة فى هذه الدار جيلا بعد جيل .. حتى أصبحنا لازمة من لوازمها كهذه الشجرة التى تظلنا الآن ..

تبدأ قصة هذه الدار فى غابر الزمن عندما كانت قصرا لحاكم المدينة وكان رجلا حكيما عادلا .. وكانت قلوب الرعية تفيض بحبه والولاء له .. ولكن البلاد كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت نير سلطان أجنبى .. وكان على حاكم البلدة أن يؤدى له جزية سنوية فادحة .. ففى احدى السنين طلب منه السلطان أن يضاعف الجزية ، ووجد الحاكم أن ذلك افراط فى الحيف والظلم .. فرفض أن يجيب السلطان الى مطلبه وأعلن العصيان .

وكان السلطان فتى طائشا أحمق فتملكه الغضب وأمر بأن يجهز جيشا لتأديب ذلك الحاكم العاصى .

وبدأ الحاكم يكوّن جيشا من أهل المدينة لصد الجيش الغازى .. وسرعان ما احتشد أهل المدينة وقد تناولوا كل ما استطاعت أن تصل اليه أيديهم من أسلحة وهراوات ، وفؤوس .. واصطدم جيش الطغاة بأهل المدينة البواسل ففتك بهم فتكا شديدا .. وتحصن الحاكم وبعض من جنوده فى هذه الدار .. فلم تطل مقاومتهم الا فترة وجيزة .. استطاع الغزاة أن يقتحموا بعدها الدار فسقوا الحاكم ورجاله كأسا دهاقا ومزّقوا جثثهم اربا اربا .

وسيقت النساء سبايا .. وبدأ السلطان الأحمق يستعرضهن واحدة واحدة .. وكانت أولاهن ابنة الحاكم ، فأخذ الفتى بجمالها .. ولم يستطيع أن يقاوم بريق عينيها أو سحر شفتيها ، ولم يحاول أن يرى غيرها من السبايا .. بل أمر حاشيته وقواده بأن ينصرفوا عنه ويتركوه مع الفتاة .

وقع السلطان فى شرك هواها وحاول أن يستميلها اليه . ولكن قلبها كان يفيض بالبغض والكراهية له .. ولم يجد اغراؤه اياها بالزواج .. وبأن تكون ملكة متوجة ، فقد استمرت تلقاه فى جمود كأنها جسد بلا روح .. وأخيرا نفذ صبره .. فصمم على أن ينتزع منها الحب انتزاعا .. فأمر بأن توضع في قبو فى أسفل الدار .. وأحضر أحد البنائين وأمره بأن يقيم جدارا يسد به باب القبو ، فلا يترك منه الا فتحة ضيقة .. وأنبأ الفتاة أنه سيدفنها حية فى هذا القبو أن استمرت على ازدرائها اياه واحتقارها له .. وأخبرها أنه سيترك لها فرصة يوم لتنبئه بما استقر عليه رأيها .. وأن عليها الآن أن تختار بين حبه وبين هذه الميتة المخيفة .

وفى اليوم التالى نزل الفتى الى القبو وسألها : اما زلت مصرّة على نفورك ؟ .. ولكن الفتاة استنكفت أن تجيبه .. فما كان من الطاغية الا أن سد الفتحة الباقية من الجدار .. وترك الفتاة حية فى قبرها .

وفى نفس اليوم اشتعلت بين جنود الفتى فتنة فثاروا عليه وهاجموا القصر ، فحاول تهدئتهم ، ولكن أحد الجند طعنه فى صدره فخر الى الأرض صريعا ، وأحس أن نهايته قد أخذت تدنو وشعر بالندم يخزه على حبسه الفتاة حية في ذلك القبو .. وبدأ يتحامل على نفسه فأمسك بفأس وأخذ يزخف بها نحو القبو حتى وصل الى ذلك الجدار الذى أقامه ، وهم برفع الفأس ليثقب الجدار ، ولكن قواه خانته فهوى الى الأرض جثة هامدة .. وبقيت الفتاة حبيسة فى قبرها .. وبعد بضعة أيام ثار أهل المدينة فطردوا جيش الغزاة . واستردوا دار الحاكم ولكن أحدا لم يجسر أن يقطنها أو يزاحم هذين الروحين اللذين يأبيان أن يفارقاها .. فاحداهما حبيسة فى القبو الأخرى حائرة اما الجدار تحاول اخراجها .

وصمت العجوز فكدت أنفجر من فرط الضحك .. يا للأقصوصة الممتعة ! أهذا هو مايخيف الناس من سكنى الداز ؛ روح سجينة فى القبو وروح تحاول هدم الجدار .. أمن أجل هذه الخرافة المضحكة التى يرويها العجوز الأحمق تبقى الدار مهجورة مقفرة طوال تلك السنين ؟ .. واذا كانت تلك العقول الضيقة قد صدقت هذه الأسطورة الركيكة .. فلم لايحاول أحدهم أن يدخل الدار فيهدم بنفسه ذلك الجدار ويطلق الروحين الحائرين الى حال سبيلهما ؟

ونظر الىّ العجوز نظرته الى طفل أبله .. ثم هز رأسه وقال فى هدوء :

— يا بنى . كف عن السخرية فما رويت لك الا ما سمعت . وما أظن أن أبى قد روى لى الكذب .. وعلى أية حال ، فهب أن القصة كلها محض خرافة .. فماذا ترى فى أولئك الذين سخروا منها كم سخرت أنت ، وحاولوا أن يقطنوها ، فلم تمض بضعة أيام الا وقد رزئوا بموت واحد منهم ، فعجلوا بالفرار منها وتركوا الدار بتحفها الثمينة ورياشها الفخمة .. دون أن يجسروا على العودة اليها قط .

— أما انهم رزئوا بموت واحد منهم .. فلا أظن الدار لها دخل فى ذلك الأمر .. الا اذا كنت تظن أنهم مخلدون فى الحياة .. وأما أنه مات بعد بضعة أيام من سكنهم الدار فالمسألة لاتعدو أن تكون مصادفة .

وتشعب بى الحديث مع العجوز فى نواح مختلفة حتى أحسست بقرصة الجوع تلذع أحشائى ، فعدت أدراجى الى الفندق الذى أنزل فيه والذى يبعد كثيرا عن الدار .

ولم يكد الظلام يسدل ستوره حتى وجدتنى أعود أدراجى الى الدار .. لقد كنت فى لهفة الى التسلل اليها والتجول فى حجراتها ورؤية ما بها من تحف مهجورة معطلة ، ولم يكن يلوح لى أى أثر قريب أو بعيد لتلك الأرواح التى حدثنى عنها العجوز فما كانت أومن قط فى أية لحظة من لحظات حياتى أن هناك عفاريت أو شياطين أو ما يشابههما ، وما كنت لأشغل ذهنى بالتفكير فيما هو ليس بكائن الا فى الأوهام والأحلام .

ولم تكن هناك أية صعوبة فى التسلل الى الدار ، فالعجوز كثير النوم بطىء الحس .. وهو لايخطر لباله قط أن هناك من يجرؤ على الاقتراب من الدار .. بل اقتحامها والتهجم على سكانها من الأرواح والأشباح .

وقفزت على السور .. ثم عالجت احدى النوافذ بفأس عثرت عليها فى أرض الحديقة فلم أجد صعوبة فى فتحها .. وبعد هنيهة وجدت نفسى فى حجرة موحشة ، شديدة الظلمة ، فأشعلت عود ثقاب تبينت على ضوئه بضع شموع فى ركن الغرفة فأسرعت باشعالها .. وسرت أتجوّل فى الدار .. فاذا بها دار رحبة فسيحة مليئة بالتحف القيمة والتماثيل والصور .. ولم أجد بها قط ما يخيف أو يثير الذعر .. وأخذت أفكر فى سخف الإنسان الذى يهجر مثل هذه الدار خوفا من أرواح مزعومة .. واستعدت فى رأسى تلك القصة التى سمعتها من العجوز . فوجدتنى أضحك مرة أخرى . ولكنى توقفت عن الضحك فجأة .. ا سمعت حركة خفيفة .. وخيل الىّ أن هناك وقع أقدام تقترب . فخشيت أن يكون الحارس قد تنبه من غفلته وأبصر بضوء الشموع يد من خلال النوافذ فدخل الدار يستجلى الأمر .. وخشيت أن يظنن

العجوز لصا قد اقتحم الدار يبغي السرقة .. فيصيح مستنجدا بأهل الناحية .. وأقع أنا فى مأزق الله أعلم بنهايته .

ولم أدر كيف أجيب اذا ما سئلت عن سبب وجودى فى ذلك الوقت من الليل فى هذه الدار الخاوية .

وتخيلت نفسى أعدو وخلفى كل من هب ودب من صبية ورجال .. ثم رأيتنى قد وقعت فى أيديهم ، فتهافتوا على ضربى ولكمى كأنهم كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر .

ولم يأخذ منى التفكير فى هذا المنظر البغيض الا ثوانى معدودات برق لى على أثرها خاطر وجدت فيه خير منقذ من هذا المأزق الحرج .. بل وجدت فيه تسلية وحبورا .

هذا العجوز الأحمق الذى أسمع وقع أقدامه تقترب والذى سيضبطنى بعد لحظات متلبسا بجريمة السرقة .. ليس هناك أسهل من خداعه .. فلا شك أنه يؤمن ايمانا قويا بوجود أرواح فى الدار .. فلم لا أكون أنا أحد هذه الأرواح فأجعله يفر أمامى مرتعدا ويعود أدراجه من حيث أتى .

وفى لمحة عين قعدت مكانى وأمسكت بالفأس التى فتحت بها النافذة ، وجذبت غطاء أبيض فلففت به جسدى من قمة رأسى الى أخمص قدمى وأطفأت الشموع ووقفت أنتظر ..

وساد السكون .. فلم أعد أسمع بعد ذلك وقع الأقدام التى كانت تقترب .. وخيل الىّ أن العجوز قد عاد أدراجه وكفى الله المؤمنين القتال .. فأحسست بالضيق .. وتحوّلت رغبتى من الفرار والنجاة .. الى رغبة فى الهزل والمزاح .. ووجدت أن هذه الفرصة — فرصة أن

يكون المرء عفريتا أو جنيا أو روحا – قد لاتسنح لى مرة أخرى فى هذه الحياة .. فخطوت بضع خطوات فى الظلام ، ودلفت الى الحجرة التى تخيلت أنى سمعت صوت الأقدام يصدر من ناحيتها .. وقد أمسكت بالفأس وجمعت أطراف الملاءة البيضاء حول جسدى فلم يبد منها الا عيناى .. وانتظرت أن أرى العجوز وقد تسمر فى مكانه من فرط الفزع .

ولكنى بدلا من أن أرى العجوز .. رأيت عفريتا قد اتشح بالبياض وملكتنى الحيرة فلم أدر كيف أبدا الحديث .

وأخيرا تحدث العفريت ليسألنى من أكون .. فاذا بصوته مليء بنعومة ورقة ، من النوع اللطيف .. فأدركت أنها عفريتة .. واطمأن قلبى قليلا .. ورأيتنى أعود بذهنى دون أن أدرى فأستعيد قصة العجوز .. وقلت لنفسى ان صاحبتنا لابد وأن تكون الفتاة سجينة القبو .. وأحسست برجفة تسرى فى بدنى فقد خشيت أن تظننى الفتى الذى سجنها فيكون نصيبى منها عداوة لا أستحقها .. فأسرعت لنفى الشبهات عن نفسى ولأبين لها حسن نيتى .

قلت : الظاهر أنى تأخرت قليلا .. فقد كنت فى طريقى الى القبو لأطلق سراح سيدتى ..

وسادت فترة صمت قبل أن تقول :

– أبعد هذه القرون التى مضت .. جئت الآن تفكر فى اطلاق سراحى ؟

يا للسخرية ! إذن فهذه العفريتة البلهاء تظننى عفريتا ! وا ماظننت قط أن العفاريت بمثل هذه السذاجة !

واقتربت من الشبح الأبيض وجثوت على ركبتى وقلت هاتفا : هذه القرون التى ولت .. لم تزدنى الا لهيبا .

وخيل الىّ أن أبصر ابتسامة سخرية تلمع فى عينى العفريتة .. ثم سمعتها تقاطعنى بصوت يغلبه الضحك : — ضم الملاءة قليلا الى جسدك .. فالعفاريت لايلبسون البنطلون .

ونظرت الى أسفل فاذا بالملاءة قد انحسرت عن ركبتى فظهر البنطلون .

يا للكارثة .. لقد اكتشفت الخبيثة كذبتى .. وشعرت بالحيرة تتملكنى ولم أستطع الا الاستمرار فى الكذب فسألتها : ومن حرّم على العفاريت لبس البنطلون .. أليس فيه ستر من العرى ؟ .. ان كان البنطلون يعتبر لديك مانعا من أن أكون فى زمرة العفاريت .. فأظن أن المسألة بسيطة جدا .

ثم مددت يدى الى الحزام وهممت بخلع البنطلون .. وبدت من العفريتة صرخة خجل ورأيتها ترفع يدها فتحجب بها عينيها .. بينما انحسرت ملائتها قليلا . فأبصرت منها ما جعلنى أشك كثيرا فى سلامة عقلى !!

يا للذكاء الذى خبا .. العقل الذى ضل .. هذه العفريتة لابد وأن تكون آدمية من لحم ودم ، فأغلب ظنى أنها قد سمعت من الحارس العجوز القصة كما سمعتها وساقها حب الاستطلاع كما ساقنى .. ثم أحست بضجتى كما أحسست بضجتها .. ففعلت كما فعلت والتقينا نحن الاثنين .. ولكنها كانت أكثر منى ذكاء فكشفت أمرى قبل أن أكشف تدبيرها .

ولم أر خيرا من أن أقوم فأحتضن الفتاة وأوسعها لثما وتقبيلا .. وحاولت التخلص من ذراعي صائحة : (انى أمقتك .. اننى أفضل العودة الى سجنى فى القبو المظلم) .

يا للفتاة الحمقاء .. أما زالت مصرّة على أنها عفريتة !! .. اذاً ليكن لها ما تشاء .. ورفعت الملاءة من الأرض فلففت بها نفسى وأمسكت بالفأس .. وسألتها التكرم بلقاء آخر .

وفى اليوم التالى تسللت الى الدار وارتديت ملابس العفاريت .. وبعد لحظات أحسست بوقع أقدام العفريتة متشحة بملاءتها البيضاء .. وكان بيننا حديث ذو شجون .. وعندما افترقنا كانت العلاقات بيننا علاقة ود وصداقة . وتكرر اللقاء بيننا .. فى نفس الموعد وبنفس الطريقة .. وبدا الحب ينشب مخالبه فى قلبينا رويدا رويدا .

وأخيرا أبصرت العفريتة للمرة الأولى فى وضح النهار .. ورأتنى هى الأخرى .. وليتها ما رأتنى .. فقد كنت أسير مع احدى صاحباتى .

وفى المساء ذهبت الى الدار .. وانتظرتها فلم تحضر .. ومضت بضعة أيام وهى ممعنة فى هجرتها .. وأخيرا التقيت بها فى ضبيحة ذات يوم .. وأبصرت فيها آدمية فاتنة ساحرة .. فانتحيت بها جانبا وهمست فى أذنها :

– ما ظننت قط أن العفاريت تغير من الآدميين !

– كفى عبثا .. لا أحب الخديعة .

ونظرت الى الفتاة فأدركت أن نصفى الآخر لايمكن أن يكون الا هى .. فعزمت على الزواج منها وأن تقطن الدار التى التقينا بها اول

مرة .. وأقمنا العرس فى الدار وملأناها بهجة وحبورا .. ومضت بضعة أيام ونحن ننعم بالحب والهناء .

وذات يوم أخبرتنى الفتاة المحبوبة أنها تحس بوعكة .. ولزمت الفراش وأخذت فى الذبول كأنها زهرة تذوى . حتى حلت نهايتها أخيرا .

وتركت الدار المخيفة ورأيت حارسها ينظر الىّ باشفاق وسمعته يهمس : لقد حذرتك فأخبرتنى أن المسألة لاتعدو الصدفة .. ليتك صدقتنى !

★ ★ ★

دموع الرجل النحيف

كانت رؤية الرجل تثير الرعب فى قلوبنا .. وكان منظره يبعث فى أبداننا قشعريرة ويملأ نفوسنا هلعا .

وكان أول ما أذكره عنه هو تلك الصورة التى طبعت له فى رأسى منذ عشرات السنين ونحن ما زلنا أطفالا نلهو ونعبث .. ومازلت أذكر حتى الآن تلك الحجرة المترامية الأطراف فى منزلنا العتيق وقد أويت وأخوى الى مضاجعنا ومعنا الخادمة التى كانت تقوم بمهمة تنويمنا .. ولم يكن هناك أثقل علينا فى ذلك الوقت من أن نأوى الى مضاجعنا .. فقد كنا نكره النوم لأنه يحرمنا من لذة اللعب واللهو وكنا نتمنى لو جعل الله الليل والنهار معاشا ، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار .

وكانت الخادمة تضيق ذرعا بنا .. وباصرارنا على عدم النوم .. ففكرت فى أن تخيفنا حتى نضطر الى الانكماش فى الفراش فيغلبنا النوم ونروح فى سبات عميق .. وبدأت عملية التخويف فأخبرتنا أننا اذا استمررنا على هذه العفرتة والشقاوة وأبينا أن ننام ، فستضطر الى أن

تشكونا الى الشيخ (شيبون شيبر) وهو كفيل بأن يأكل من كل منا ذراعه أو ساقه .

وقفزنا من الفراش وأمسكنا بتلابيب الخادمة وسألناها عمن يكون هذا الشيخ الشيبون وما قصته وما شكله ، وبدأت الخادمة تصفه لنا فأنبأتنا أنه جنى يبدو فى صورة رجل ضخم الجثة عريض المنكبين .. ذو وجه قبيح مخيف ونظرات شريرة قاسية يتطاير منها شرر ينير له الطريق عندما يسير فى الليل وأن أسنانه حادة كالسكاكين وأظافره قاطعة مدببة كالمخالب وأن أقدامه ليست كأقدام الإنسان بل هى أشبه بحوافر الخيل .. وأنه مولع بأكل الأطفال وخاصة الأشقياء منهم والذين يرفضون النوم .

وتشككنا أول الأمر فى حديث الخادمة .. ولكنها أرتنا أثر جرح فى ساقها وأكدت لنا أنه عضة من الشيخ (شيبون) عندما رفضت النوم ذات ليلة وهى طفلة صغيرة .. فبدأت عقولنا الصغيرة تؤمن أن الأمر ليس به خدعة .. وزادنا يقينا من صحة كلامها تلك الأصوات الصادرة عن حوافر الخيل التى تجر عربات الحنطور والتى تقرع أرض الطريق قرعات منتظمة .. فقد أكدت لنا الخادمة أنها وقع أقدام الشيخ (شيبون) وهو يبحث عن الأطفال الأشقياء .

وهكذا رسمت الخادمة فى أذهاننا صورة مروعة لذلك الشخص المخيف الذى ابتكره ذهنها وأوحى به خيالها .. حتى تستطيع ارهابنا وقت الحاجة .. ولتسوسنا به اذا استعصى عليها أمرنا .

والى هنا ليس فى الأمر غرابة أو عجب ، فما من طفل الا وله بعبع يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر ، وما أظن الشيخ شيبون يختلف فى شىء عن (أبو رجل مسلوخة) أو (عفريت الليل ، بسبع رجلين) الى

آخر هذه الشخصيات الخيالية التي ابتكرت لإرهاب الأطفال .. ولكن العجيب حقا هو أن ينقلب شيبون فيصبح حقيقة لا وهما .. وأن نراه أمامنا جسدا متحركا .. لا طيفا ولا شبحا ، وانسانا من دم ولحم لا خرافة ابتكرتها رأس خادمة .

ففى ذات يوم وقد أخذنا نلهو بالكرة أمام المنزل قذف أحدنا بها فأصابت ظهر أحد المارة .. وعدوت لآخذها .. فاستدار الرجل الىّ بوجه غاضب ، وتسمرت قدماى فى الأرض ولم أستطع أن أكتم صرخة فزع انطلقت من صدرى .. فلقد كان الرجل هو (الشيخ شيبون شيبر) . نعم أقسم أنه هو !! فهذا الجسد الطويل الضخم كأنه المارد وهذا الوجه القبيح الدميم ، وتلك النظرات القاسية الشريرة الصارمة .. وهذا الشرر الذى يكاد يتطاير من عينيه .. والأظافر التى تبدو كأنها مخالب طير كاسر ، وتلك الملابس العجيبة الفضفاضة . كل هذا لايكون الا له .. نعم انه هو بعينه بلا أدنى ريب ولاشك .

ووجدت الرجل يمسك بالكرة فينشب بها أظافره ، ويمزقها اربا اربا ، ثم يقذف بها فى وجهى ويمضى فى سبيله ووجدتنى أقف فى مكانى مذهولا مشدوها .. وقد أخذت عيناى تتبعان الرجل .. وتبحثان عن قدميه .. حتى يتأكدان أنهما حوافر خيل .. ولكن الرجل اختفى .. دون أن أستطيع تمييز قدميه فقد أخفتهما ملابسه الفضفاضة الجرارة .. وان كان وقعهما على أرض الطريق يشبه الى حد كبير تلك الطرقات التى كنا نسمعها فى بهمة الليل .

وعدت أدراجى أحمل أشلاء الكرة التى فتك بها الرجل وأنا أرتجف من الفزع فاذا ببقية الأطفال قد ولوا الى دورهم مذعورين .

وفي الليل أنبأت الخادمة هامسا : انني رأيت شيبون ، فبدرت منها ضحكة عالية ولكنها سرعان ما كست وجهها ملامح الجد وأنبأتنى هامسة :

- ألم أحذرك منه ؟ اياك بعد ذلك والعفرتة .. لقد اكتفى هذه المرة بتمزيق الكرة .. ولكن لا أظنه سيكتفى فى المرة القادمة الا بتمزيق جلدك وسحق عظامك .

وشجع هذا الحادث على أن تمعن الخادمة فى اخافتنا بالشيخ شيبون من داء قد دخل فى روعنا أنه حقيقة لا خرافة .. حتى حدث ذات يوم أن رأت بعينها ذلك الرجل الذى رأيته .. ومن ذلك الحين وهى لا تجرؤ على ذكر اسمه قط .. فلقد صدمتها رؤيته صدمة كادت تذيب قلبها .

كان ذلك قبيل الغسق وقد خرجت والفتاة لقضاء حاجة من السوق .. ولم نكد نبتعد عن الدار حتى وقع بصرنا على منظر بعث الرعب فى نفوسنا .. فقد سمعنا فى البدء صراخ طفل .. فلما اقتربنا من مكان الصراخ تسمرت قدماى فى الأرض فقد أبصرت شبح عملاق تبينت فيه ذلك الرجل الذى مزّق لنا الكرة والذى استطعت أن أجزم أنه هو نفسه الشيخ شيبون ذو الحوافر والمخالب .. وقد قبض باحدى يديه على عنق الطفل .. وبالأخرى على هراوة أخذ ينهال بها على جسده بقسوة ووحشية .

وأمسكت بالخادمة بكلتا يدى كما يتشبث الغريق بلوح من الخشب .. وخبأت وجهى فى ثيابها وصحت بصوت مبحوح مرتعد :

- شيبون !!

ويستطيع المرء أن يتخيل ما أصاب الفتاة من ذعر وفزع وهى ترى تلك الصورة التى ابتكرها ذهنها وحشدت فيها كل ما طاف برأسها من أصناف مرعبة مخيفة .. قد تجسدت وصارت كائنا حيا هو ذلك المخلوق المرعب الذى لايفصله عنها الا خطوات معدودات .

وأسلمت الفتاة ساقيها للريح وقد أمسكت بى من يدى .. وأخذنا نعدو كمن به مس من شيطان رجيم .. وقد كاد يقتلنا الرعب .. ومن ذلك اليوم وذكر الرجل لايأتى على لسان الفتاة .. فقد كان ذكره يخيفها أكثر مما يخيفنا .

وذاع أمر الرجل وانتشر صيته .. وكأن غريبا قد نزح الى الناحية وقطن احدى الدور القديمة المتواضعة وأنشأ به حانوتا لبيع وشراء الأشياء القديمة ، وعرف بين أهل الناحية باسم (الشيخ شيبون شيبر) رغم أن اسمه الحقيقى لايمت الى هذا الاسم بصلة ولا شبه .. وكان أبرز ما فى الرجل ذلك الذعر الذى يتركه فى نفس كل من يراه مهما كان عمره أو كانت شجاعته .. وكان كذلك شديد الكراهية للأطفال والقسوة عليهم حتى بدأ الناس يتهامسون أن الرجل يخطف الأطفال ليضعهم فى قبو يقع فى أسفل حانوته ثم يلجأ الى تعذيبهم حتى يموتوا من فرط الألم .

ومرّت السنون وشببنا عن طوق الطفولة ، وقد بقيت منها ذكريات بعيدة باهتة .. وتغير كل شىء فينا الا شيئا واحدا ظل كما هو .. ذلك هو بغضنا للشيخ شيبون وخوفنا منه .

فقد استمر الرجل غامضا كما هو .. ورغما عما فعلته به السنون من أحدوداب فى الظهر واضمحلال فى الجسد .. فقد ظل على ماهو

عليه من قسوة وصرامة ، واستمرت نظراته الى الناس مليئة بالبغض والكراهية .. ولم يكن لكبر سنه أى أثر فى تخفيف ذلك الذعر الذى كان يعترى كل من رآه ، والرعب الذى يملأ قلب كل من صادفة .

واستمرت السنون فى السير فاذا بى وقد أضحيت زوجا ، ثم أبا لطفل كأنه الدمية ، وأعاد التاريخ نفسه ، فاذا بابنى يخيفونه بالشيخ شيبون عندما يستعصى عليهم تنويمه تماما كما فعلوا مع أبيه من قبل .. وسألنى الطفل ذات يوم عما اذا كنت رأيت الشيخ شيبون ، وعما اذا كنت قد رأيت حوافره .. فأفهمته أنه آدمى مثلنا .. فلا حوافر له ولا مخالب .. فبدا الشك على وجه الطفل وأنبأنى أنه يريد أن يراه .

ولم يكن يخطر ببالى قط أن الظروف ستضطرنى الى الذهاب الى الرجل فى حانوته وأن يرافقنى طفلى الصغير المحبوب عند زيارتى لذلك الرجل المخيف ، ولكن الأقدار أحيانا تجبر الإنسان على أن يفعل مالم يكن يتصور فعله .. ففى ذات يوم خرجت مع طفلى أجول جولة فى الطرقات وأخذنا نسير الهوينا وأنا أجيبه على أسئلته التافهة التى لم يكف عنها لحظة واحدة منذ بدأنا السير .. ورأيتنى أقترب من حانوت الشيخ شيبون ، ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أسأل الطفل ضاحكا :

— ألا تريد أن ترى الشيخ شيبون ؟ هذا هو حانوته !

ورأيت بالطفل لهفة الى رؤيته ، فقد كان يريد أن يتأكد أنه كائن حقيقى .. وأنه مخيف كما يصفونه .. وأحسست بنفسى رغبة الى أن أجلس معه وأحادثه .. وأن أرى من قرب الرجل الذى استمرت ذكراه أو رؤيته حتى من بعيد تثير فى نفسى الذعر ما يقرب من خمسة وعشرين عاما .

ودخلت الحانوت ولقيت الرجل وجها لوجه فلم أستطع أن أمنع موجة من الذعر سرت فى جسدى .. وأحسست بالطفل يتشبث بثيابى ويخبىء رأسه فيها .

وطلبت الى الرجل أن يرينى بعضا من التحف القديمة .. فذهب ينقب ثم عاد الىّ ببعض من التماثيل والأوانى القديمة ، وأخذ يشرح لى قيمة كل منها .. وبدأ الخوف يذهب من نفسى رويدا رويدا .. وحل محله الاطمئنان .. وكان حديث الرجل طليا لطيفا .. فبدأت انساق معه فى الحديث حتى كدت أنسى أنه (الشيخ شيبون) .. ووجدت الفزع قد ذهب أيضا من نفس الطفل .

لقد رأيته يقترب من الرجل فى سكون .. ثم ينحنى ببطء ويمسك بثوبه الذى يكاد يمس الأرض فيرفعه مرة واحدة ويكشف عن قدمى الرجل وساقيه !

لقد كان الطفل يريد أن يتأكد هل هو ذو أقدام مثلنا أم أنه يسير على حوافر !

ورأيتنى أنا الآخر أثبت نظرى فى أقدامه حتى أتأكد مما يريد أن يتأكد منه الطفل .

وجدت أن قدمى الرجل طبعا لاتكاد تختلفان عن أقدامنا فى شىء .. فمددت يدى لأجذب الطفل ولأؤنبه على سوء فعلته .. ولكن الرجل المخيف لم يترك لى الفرصة كى أفعل ما أردت .. فقد رفع كفه الثقيلة التى تشبه مخالب الوحش ثم أهوى بها على وجه الطفل فى صفعة لم تبصر عيناى أشد منها وصاح بغضب :

– كان خيرا لك أن تحسن تربيته .

وأبصرت الدماء تسيل من أنف ابنى المحبوب .. ولا أظن أى انسان يستطيع أن يتصور وقع ذلك فى نفسى وأنا أبصره والدمّاء تسيل من أنفه بعد أن صفعه ذلك الوحش القذر الكريه .

لقد اندفعت من مكانى أريد أن أحطم رأس الرجل .. ولكنى وجدت الطفل قد وقف يعترض طريقى وأخذ يصيح بى :

— اتركه يا بابا فهو آدمى مثلنا .. وليس شيطانا أو جنيا .

ونظرت الى الرجل .. فاذا بالتجهم قد زال عنه .. وحلت محله علامات آلام تعتمل في جوفه كأن أحشاءه تتمزق ، ورأيته ينهار على أحد المقاعد .. وأبصرت الدموع تنهمر من عينيه بشدة .

ومد الرجل يديه فاحتضن الطفل بحنان ورفق وأخرج منديلا من جيبه يجفف به الدماء التى سالت من أنفه وسمعته يهمس الىّ بصوت مبحوح :

— خمسة وعشرون عاما استطعت أن أكبت فيها ذلك الحنان الذى يصطخب فى صدرى .. وأن أسدل على وجهى ذلك القناع البغيض من القشوة ، لقد نجحت فى أن أقسو على الأطفال وأن أتجهم لهم ، ولولا ذلك لما استطعت أن أعيش لحظة .. ولقتلنى الحزن .. لقد كان كل طفل أراه يثير فى نفسى الذكرى الأليمة .. ويقطع نياط قلبى ويمزق أحشائى .. وكان يخيل لى أحيانا أن أتبنى كل طفل أراه .. أو أن أجمع أطفال العالم كلهم فأحتويهم فى صدرى .. فقد كنت أرى فى كل طفل ولدى الغائب المحبوب .. وكم كنت أعدو خلفهم فى الطرقات أظنه بينهم .. حتى ظننى الناس مجنونا .. وخشوا على أطفالهم منى وأصبح الأطفال يتجنبوننى ويفزعون منى ، وكم انتظرت أوبته حتى طال بى الانتظار وفاض بى اليأس فصممت على النسيان وعزمت على أن أقتل ذلك العطف الذى فى قلبى .. وأن أتجهم وأقسو .. ومرت علىّ

السنون ، فأصبحت كما ترى رجلا مخيف .. وظننت أننى سلوت ونسيت حتى دخلت الى حانوت بطفلك فتوجست منه خيفة .. فقد أحسست بعض الحنين .. لشدة الشبه بينه وبين طفلى المحبوب .. فصممت على أن أقسو عليه .

وثار غضبى عندما حاول أن يكشف عن ساقى ليرى «حوافرى» فلطمته هذه اللطمة العنيفة التى أسالت الدم من أنفه .. ثم شعرت بطعنة فى صميم قلبى عندما منعك من الاعتداء علىّ لأننى آدمى مثلكم وليس بشيطان كما تزعمون . آه لو كانت الأرواح تعود الى الأرض مرة أخرى لأقسمت أن هذا هو طفلي .. فهو أول من أراه يحنو علىّ بعد أن ذهب ولدى .. انى لأتخيله الآن وقد امتطى حماره ، ووضع عليه السلال الفارغة .. فقد كان ذلك هو خير ما يلهيه ويطربه .. يجول الطرقات مقلدا صوت الباعة حتى يذهب الى شاطىء النهر .. فيعبث بحماره فى الماء ثم يعود الى الدار .

وفى ذات يوم خرج كعادته ، وقد علا غناؤه ورنت ضحكاته .. وكنت أشعر بتشاؤم يملأ قلبى .. فقد فقدت أمه المحبوبة فى مثل ذلك اليوم منذ بضع سنين خلت .

وخيل الىّ أن الطفل تأخر .. ولكننى ظننت أن ذلك مرجعه ما بقلبى من تشاؤم .. فتماسكت بأطراف الصبر حتى حل الظلام .. وقفزت من مكانى وأخذت أعدو فى الطريق كالمجانين ، وكان أول ما صادفنى .. الحمار بلا شىء على ظهره سوى السلال الفارغة .

وخيل الىّ أن قلبى على وشك أن يقفز من مكانه .. وأمسكت برأس الحمار من فرط ما بى من جنة اسأله عن الطفل .. واستمر الحمار مطأطىء الرأس فى صمت عميق .. ثم استدار بعد برهة وسار فى طريقه وأنا أتبعه .. حتى انتهى بى الى شاطىء النهر .

ولم أجد هناك آدميا أستطيع أن أستدل منه على الطفل . ولجنوني .. أخذت أجرى هنا وهناك .. حتى أنهكنى التعب ، والحمار واقف أمام بقعة على الشاطىء لايتحرك ، وأخيرا لم أستطع الا أن أجلس بجوار الحمار أرقب وأنتظر .

وجلست فى مكانى وعيناى مثبتة بالماء .. أربعة أيام بلا طعام ولاشراب ، والحمار واقف بجوارى وعلى ظهره السلال الفارغة .. حتى حملنى الناس الى الدار كأنى جثة هامدة ..

وهنا رأيت طفلى يقفز من على ركبتى ثم يشير بأصبعه الى نهاية الطريق ويصيح قائلا :

– أنظر يا أبتاه .. هذا الطفل الذى امتطى حماره وامامه السلال الفارغة .

ومدّ كل منا رأسه فأبصرنا فى نهاية الطريق طفلا شديد الشبه بذلك الطفل الذى مازال الرجل ينتظر أوبته . وندت من الرجل صرخة خافتة وحاول القيام ولكنه لم يستطع كأنما أصيب بشلل فأشار الى أن أعدو وراء الطفل فأحضره .. وقفزت من مكانى وعدوت وراء الطفل لأحضره اليه حتى أخفف ما بنفسه من لوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى نهاية الطريق حتى كان الطفل قد اختفى .. وعدت أدراجى وبى حنق على طفلى لأنه حرّك فجيعة الرجل ونكأ جرحه باشارته الى ذلك الطفل ، وصممت أن أبذل كل ما فى وسعى حتى أرفه عن نفسه وأزيل ما بها من حزن ولوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى الحانوت ، وأحدث الرجل حتى وجدت أنه لم يعد فى حاجة الى ترفيه أو تسلية فقد كان أبعد من أن يصل اليه حديثى .. لقد فاضت روحه وذهب الى حيث يستطيع أن يلقى طفله المحبوب .